الفصل الثاني

وقفة عبد الناصر الأخيرة

الجزء الاول
الاثار التي ترتبت على الهزيمة

جاء حديث الفريق عبد المنعم رياض مع عبد الناصر قرب نهاية فصل من تاريخ نصر بدأ في حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧. كانت الهزيمة في تلك الحرب مفاجأة تامة للجميع . وربما كان صحيحاً ان مصر لم تكن تتوقع النصر فيها ، لكنه مع ذلك لم يكن هناك من كان مستعدا لهزيمة في مثل هذا الحجم المدمر. كان الكل مشدوها، ومنهم الروس . في حين عمت الفرحة الاسرائيليين . اما العالم العربي فكان في حالة البلبلة كاملة. ووسط هذا الحطام ترك عبد الناصر وحده يحاول ان يصنع منه شيئاً.

كان من رأيه اولاً ، ان عليه ان يركز على ما بقي من وسائل دفاعه، وكان في ذلك الوقت يتلقى العديد من التحذيرات ان الاسرائيليين يعتبرون ان ما تم لهم تحقيقه لا يعدو ان يكون مهمة لم تكتمل ، خصوصا بعد احداث يومي ٩ و ١٠ يونيو (حزيران) حين خرجت الى الشوارع جماهير الشعب في مختلف انحاء العالم العربي في اعقاب الخطاب الذي القاه عبد الناصر وأعلن فيه تنحيه، تطالبه بالبقاء وعدم التنحي . وكان ذلك نصرا سياسيا لعبد الناصر، لكنه لم يكن بطبيعة الحال نصرا يعوض الهزيمة العسكرية .

وكان عبد الناصر يشعر بان لديه تفويضا بمحاولة اعادة تنظيم الجبهة الداخلية ، وحشد الصف في البلاد العربية ، والدخول الى معركة ما سماه ازالة آثار العدوان ، ورأى ان استراتيجيته المقبلة يجب ان تتضمن ثلاث مراحل : في البداية كان عليه ان يتخذ موقفا دفاعيا بحتاً ، ثم ينتقل الى الردع الفعلي، وفي النهاية ينتقل الى مرحلة تحرير ما فقد .

وكان لابد ان يبدأ بالجيش باعتباره مفتاح كل شيء ، ولم تكن من المستطاع اعادة بناء الجيش من دون معاونة من الروس . وجاء بودجورني الى القاهرة بعد الحرب مباشرة ليعرف حقيقة ما حدث ، وأحضر معه الماريشال زاخاروف رئيس اركان الجيش السوفييتي . ولم يكن هناك مفر من ان يعتبر الروس هزيمة مصر هزيمة لهم ايضا . وقد شجع عبد الناصر هذا الاتجاه لديهم لانه كان يرى ان من شأن مثل هذا الاعتقاد ان يزيد ارتباطهم بأزمة الشرق الاوسط وتطوراتها ، وتلك كانت الطريقة الوحيدة ، التي يمكن بها مواجهة التفوق الامريكي في تلك المنطقة . وكان لدى عبد الناصر اعتقاد جازم ان اسرائيل كانت في ذلك الوقت يستخدمها الامريكيون كأداة لفرض نظام جديد على الشرق الاوسط .

على ان زيارة بودجورني لم تسر سيرا حسنا. كان الروس من ناحية غاضبين بطبيعة الحال لأن بعض احدث انواع اسلحتهم وقعت في ايدي الاسرائيليين وسلمت الى الأمريكيين . وكانوا كذلك يرون ان مطالب المصريين من الأسلحة الجديدة مبالغ فيها . وكانت القيادة المصرية من جانبها قد شكت من أن مدى الطائرات " الميج " و " السوخوي " الموجودة لديها محدود جدا ، وطلبت طائرة مقاتلة- قاذفة بعيدة المدى . وقد دافع بودجورني عن طائرات " الميج " و"السوخوي " وعندئذ قال عبد الناصر: "حسنا جدا اذن .. اني مستعد في هذه المرحلة الدفاعية الأولى ان اترك الدفاع الجوي كله عن مصر للاتحاد السوفييتي " .

كذلك كان هناك بعض سوء الفهم بالنسبة الى مطالب الروس الخاصة بمنحهم تسهيلات لاسطولهم . ولقد بدأ بودجورني بأن طالب بمركز قيادة في الاسكندرية للسفن السوفييتية في البحر الأبيض المتوسط،

وجاء مطلبه هذا متفقا مع تفكير عبد الناصر الذي كان قد توصل الى ان تعزيز الوجود البحري السوفييتي في البحر الأبيض المتوسط ، هو في مصلحة عالم عدم الانحياز كله . وكان يأمل في امكان الوصول الى نوع من التكافؤ بين الأسطول السوفييتي والاسطول السادس ، يضع نهاية للبحر الأبيض المتوسط كبحيرة امريكية . واذ تذكر ما زعمه اشكول ذات يوم من ان الاسطول الامريكي في البحر الابيض المتوسط هو احتياط اسرائيل الاستراتيجي ، فإن مصر وغيرها من الحكومات العربية حاولت بعد ذلك ان تدعو الى خفض للقوات البحرية الامريكية ، وكان الطريق الى ذلك ان يبرز الوجود البحري السوفييتي في البحر الابيض المتوسط كخطوة اولى ، فاذا جاءت الدعوة بعد ذلك بخفض متوازن لقوات الدولتين العظميين ، فإنها ستلقى اهتماما لدى الامريكيين ، في حين انه لن يكون هناك ما يحفزهم الى اجراء مثل هذا الخفض مادام الاحتكار الفعلي في المنطقة احتكارهم .

وفي اجتماع ثان طالب بودجورني بمركز قيادة وورشة اصلاح للسفن فى الاسكندرية ، ثم اقترح ان يتولى رجال البحرية الروسية حراستها . وبعد ذلك اقترح لضمان الامن ان تسلم هذه المنطقة كلها- مركز القيادة ، وورشة الاصلاح ، ومساكن الحرس - الى الروس . وبينما ذلك كله مطروح للمناقشة تساءل بودجورني في اجتماع آخر عقد في قصر القبة عما اذا كان يمكن السماح برفع العلم السوفييتي على المناطق التي ستحدد لهم . وعند هذه النقطة توقف عبد الناصر عن المناقشة وقال غاضبا " هذا استعمار بالفعل . معنى ذلك اننا سنعطيكم قاعدة ". وهنا تراجع بودجورني قائلاً انه لم يكن يقصد ذلك، وان القصد كان حرية العمل لمساعدة مصر. لكن الضرر كان قد وقع .

والحقيقة ان عبد الناصر كان يتبع سياستين متناقضتين . كان يحاول ان يجعل الروس يرون في هزيمة مصر هزيمة لهم ، ويعمل على زيادة عونهم لها الى درجة السماح لهم بان يتولوا ، مؤقتاً على الاقل ، مهمة الدفاعي الجوي عنها . لكنه كان في الوقت نفسه يقول لهم : " لا قاعدة .. ولا علم أحمر" .

وفي تلك الفترة التي كانت فيها علاقات مصر مع الاتحاد السوفييتي متوترة على هذه الصورة ، سافر الرئيسان عارف وبومدين الى موسكو في ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٦٨ سعيا وراء الحصول على مزيد من العون للقضية العربية . وقد ابلغهما بريجنيف ان الاتحاد السوفييتي يعمل ما في استطاعته لاعادة بناء وسائل الدفاع العربية . وقال : " اني اؤكد لكما اني هنا في موسكو قضيت ليالي طويلة لم يعرف النوم خلالها سبيلاً الى جفني ، بسبب التحذيرات المستمرة التي نتلقاها عن ان اسرائيل تعتزم اجتياز قناة السويس . واذا كان من الواضح انه ليس من السهل عليهم ان يفعلوا ذلك بسبب تأييدنا للعرب وبسبب الرأي العام العالمي، فانهم مع ذلك قد يقومون في أية لحظة بهجوم خاطف نحو القاهرة من شأنه ان يضع العالم كله على حافة كارثة ". ثم قدم الى الرئيسين ارقاما عن المعونة التي قدمت الى مصر وقال : " لقد ارسلنا خلال اسبوعين اثنين حمولة ١٥ سفينة من المواد زنتها نحو ٤٨ ألف طن، اضافة الى ٥٠٠ من الفنيين " . ومرة اخرى .. فان الجو في هذه الاجتماعات لم يكن طيباً .

على ان اعادة بناء الجيش لم تكن بطبيعة الحال مجرد مسألة الحصول على مزيد من المعونة من الروس . كان لا بد من اجراء تغيير شامل في جهاز الضباط من اكبرهم الى اصغرهم . وقد كلف هذه المهمة بصفة رئيسية اثنان من الرجال ، اولهما الفريق محمد فوزي القائد العام الجديد ، وهو رجل لم يكن واسع الخبرة ، لكنه كان يتمتع عن جدارة بسمعة انه رجل ضبط وربط قاس .. ربما شديد القسوة، لأ نه كان يدوس على كل الاعتبارات الانسانية ، وكان عبد الناصر يصفه بـ " رجل الضبط والربط القاسي " ، لكن صفاته كانت هي الصفات المطلوبة لجمع شمل جيش انحطت معنوياته نتيجة عدم الكفاءة والمحسوبية ابان فترة المشير عامر ، الذي حصد من خلفوه محصول ما زرعه .

وكان عبد الناصر يقول دائما ان الفريق فوزي ليس القائد الذي يمكن ان يختاره لخوض غمارالحرب. وكان يقول ايضا انه يحتاج للحرب الى رجل كمونتجومري لا كرومل ، وكان الرجل الذي يفكر فيه

لهذا الغرض هو ثاني الرجال .. الفريق عبد المنعم رياض الذي عينه عبد الناصر رئيسا للاركان . كان الفريق رياض ، على عكس الفريق فوزي تماما، مرحا لطيف المعشر، واستطاع في دقائق ان يفوز بحب مرؤوسيه واحترامهم . لكنه لم يكن موضع ثقة بعض معاوني عبد الناصر المقربين الذين كانوا يخشون ان تثير شعبيته التي لم تكن موضع شك بين رجال الجيش طموحا سياسيا في نفسه . وكانوا ياخذون عليه انه عين لقيادة الجيش الاردني خلال الفترة التي سبقت حرب يونيو (حزيران) ، وهيأ للملك حسين أن يخدعه . لكن عبد الناصر كان يثق فيه وكان يعتقد انه يفهم الحرب الحديثة ، وان تدريبه في الدفاع الجوي اتاح له ان يصبح خبيرا في الصواريخ ، ومدرسا للرادار والمدفعية المضادة للطائرات ، وان هذا هيأه لمعركة الحرب الالكترونية الجديدة . اما بالنسبة الى طموحه السياسي فقد كان كل ما قاله عبد الناصر تعليقا عليه : " إذا كان كفياً يستطيع قيادة المعركة ويقدر على كسبها، فإني على استعداد لأن اعطيه منصبي ، من دون انتظار لانقلاب يدبره ضدي . فسيكون من حقه تماما أن يحصل عليه، ويمكنه ان يتولى المسؤولية ، فلا مانع عندي " . وفوق ذلك كله فان ضرورة القتال كانت مستبدة بتفكير الفريق رياض تماما . واذكر انه جاء الى بيتي ذات يوم يقول : " اليست لدي فائدة فى كل هذا الكلام عن الحل السلمي . ان الجيش لابد ان يقاتل ، واذا لم تتح له الفرصة للقتال ، فان رجالنا كلهم سيصبحون عبيدا ، وتصبح نساؤنا كلهن بغايا " . ولقد كان من سوء طالع مصر انه قتل في الميدان في جبهة القناة خلال شهر مارس (آذار) ١٩٦٩.

وهناك رجل ثالث تحمل نصيبا كبيرا في اعادة بناء الجيش المصري بعد نكبة العام ١٩٦٧، وهو الرئيس عبد الناصر نفسه الذي كرس جزءا كبيرا من وقته للجيش ومشاكله . وقد تخلص من عدد كبير من الضباط غير الاكفاء وشجع من كانوا يبشرون بالخير منهم ، واظهر موهبة في انتقاء المواهب . كان يعقد اجتماعا لخمسة أو ستة من الضباط يختار في نهايته من يرى انه يستحق الترقية منهم . وكان له فضل اتخاذ القرار أن تجري ، لأول مرة ، مناورات على مستوى الفرقة يقف فيها جيشان وجهاً لوجه بقواهما كاملة . وقد شكا بعض كبار الضباط من تكاليف اجراء هذه المناورات ، فكان رده ببساطة : " ان تكاليف الهزيمة ابهظ من ذلك بكثير " .

وفى اجتماع بين عبد الناصر والماريشال زاخاروف الذي جاء مع بودجورنى والقيت عليه مسؤولية كل جوانب المعونة الروسية في اعادة بناء القوات المسلحة المصرية ، قال زاخاروف لعبد الناصر انه اذا كان يريد نتائج سريعة - وكان الجميع لايزالون يعتقدون باحتمال استئناف القتال من جانب اسرائيل- فان الحاجة تستدعي احضار مزيد من مستشارى التدريب الروس زيادة على بضع المئات من الموجودين حاليا لديه . ورد عبد الناصر بأنه مستعد لقبول عدد من المستشارين يصل إلى مستوى اللواء . وهكذا اصبح لكل قائد لواء مستشار سوفييتي معين له وكان عددهم قد بلغ حينذاك ١٥٠٠ مستشار . وكان لا بد من ان يصبح هؤلاء المستشارون الاجانب مصدر بعض الاحتكاك ، لكن عبد الناصر اصر على ألا يسمح لأي أمر يتعلق بالكرامة او الكبرياء بالتدخل فى اعمالهم ، وكان يقول ان على المصريين أن يتعلموا .

وقد طلب عبد الناصر من الفريق فوزي والفريق رياض والماريشال زخاروف والجنرال لاشينكوف رئيس البعثة العسكرية السوفيتية أن يعلنوه عندما تجهز استعدادات مصر الدفاعية ، وقال للجنرال زاخاروف مازحاً يوماً : " انت مقبوض عليك هنا الى ان ينجز عملك " ، لكن قوله في الحقيقة لم يكن على سبيل المزاح ، وتجلى ذلك حين جاء يوم قال فيه زاخاروف انه يريد أن يسافر الى موسكو لرؤية اسرته ، فقد قال عبد الناصر : " ان الأمر الذي أصدرته قائم ، ولن تغادر مصر " . وهكذا لم يسافر ، وبقي في مصر الى أحد أيام شهر نوفمبر (تشرين الثاني) – وكان ذلك قبل بضعة ايام من الاقتراح بالموافقة على قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ – حين قابل عبد الناصر ومعه ثلاثة غيره من الجنرالات وقال له بلهجة الوائق : " سيادة الرئيس .. اظن أن مصر قادرة الآن على مواجهة أي شيء يمكن أن ترسله اسرائيل ، وليست لدي أية مخاوف بالنسبة الى الجبهة المصرية ، ان وسائل الدفاع طيبة تماماً ".

وعلى رغم ان القوات المسلحة كانت موضع الاهتمام الأول بالنسبة الى عبد الناصر ، فإنه كان مضطراً الى أن يوجه اهتماماً عاجلاً للاقتصاد الذي كان في حالة مشدودة . فاضافة الى الخسائر التي نجمت عن الحرب ومن اغلاق قناة السويس ، كانت مصر تعاني من اعباء حملة اليمن ، ومن الآثار التي ترتبت على خطة السنوات الخمس الناجحة ، وانفاق المبالغ الطائلة على السد العالي ، وكلها مشروعات لم يكن انتاجها قد بدأ بعد . وقد عقد عبد الناصر عدداً من الاجتماعات المشتركة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ومجلس الوزراء ، طرحت خلاله كل المسائل المتعلقة بما حدث من اخطاء وبما يجب عمله الآن ، وكانت المشكلة هي ايجاد وسيلة تحول دون توقف برامج التنمية ، وكان لابد لذلك من جرعة كبيرة من رأس المال ، فمن دون مثل هذه الجرعة يمكن ألا يوجد من المال ما يكفي حتى لسد تكاليف احتياطات القمح الأساسية ، لأن الروس كانوا يركزون كل جهودهم على الامدادات العسكرية ، ولم يكن في استطاعتنا ان نطلب منهم القمح ايضا . كانت هناك اذن اعباء تمويل الحرب، واعباء استمرار التنمية، واعباء الحفاظ على مستوى التموين والاسعار.

ثم جاء مؤتمر الخرطوم في شهر اغسطس (آب) . وكان المؤتمر نجاحا سياسيا عظيما لعبد الناصر. كان هناك ما لا يقل عن ٥٠٠ الف شخص خرجوا يستقبلون عبد الناصر في طريقه من المطار الى المدينة، ويهتفون له بكل الفرحة كما كانوا يفعلون دائما (وقد خصصت له مجلة " نيوزويك " قصة غلاف جعلت عنوانها " يحيا المهزوم ! "). ولما وصل الملك فيصل بعده مباشرة لم يجد بقية جمهور يحييه. وكانت العبارات الوحيدة التي سمعها وصحبه " سر مع عبد الناصر!. اعمل مع عبدالناصر! ".

وقد حقق المؤتمر نجاحا فاق ما كان يتوقعه عبد الناصر. فقد تم فيه الوصول الى صيغة تضع نهاية لحرب اليمن . وبدلا من ان توقف امدادات البترول الى الغرب استجابة لدعاة استخدام " سلاح البترول " ، أتفق على ان تقدم الدول المنتجة للبترول دعما للدول ، التي تعرضت للعدوان الاسرائيلي، وكان الاتفاق ساعتها يعني مصر والاردن ، لأن سوريا لم تكن ممثلة في المؤتمر. وقد افتتح الملك فيصل الدعم بعرض مبلغ ٥٠ مليون جنيه . وهو عرض سخي استهدف ازالة الضغط عن كل من الدول المنتجة للبترول وعن شركات البترول على السواء .

كان المهندسون المصريون يقومون ببناء حظائر لحماية الطائرات الجديدة التي كان الروس يرسلونها ضد اي هجوم اسرائيلي مباغت ، واجروا نماذج متعددة لتجارب ضرب هذه الحظائر بالقنابل، حتى توصلوا الى طريقة بدت فعالة لحمايتها! واظهر اللواء مدكور ابو العز القائد الجديد للقوات الجوية نشاطا عظيما في بناء المطارات الجديدة والحظائر اللا زمة لحمايتها. بل انه وسع طريق القاهرة- الاسكندرية بحيث يمكن استخدامه كممر للهبوط الاضطراري للطائرات . وقد بلغت نفقات هذه الاعمال الهندسية التي تمت قبل نهاية سنة ٩٦٧ نحو ١٠٠مليون جنيه، اي ان المبلغ كله الذي تعهد الملك فيصل وغيره بدفعه في الخرطوم قد انفق خلال فترة اقل من سنة على مشروع واحد فقط .

وقد اقتنع عبد الناصر بعد مؤتمر الخرطوم، ان مؤتمرات القمة العربية يمكن ان تلعب دورا في تنفيذ سياسة يكون قد تم الاتفاق عليها في مكان آخر، لكنها من الصعب ان تضع سياسة. وفي الوقت نفسه فان من الصعب تنظيم جبهة ثانية- اذا كان علينا أن ننظم جبهة ثانية للجولة المقبلة التي سبق اتفاق من يخططون لها على حتميتها – في مؤتمر للقمة ، لأن ذلك يجب التجهيز له مع القادرين على المشاركة فى **هذه** الجبهة والمستعدين لذلك ...

وفى خط مواز لهذه الاستعدادات العسكرية، كان عبد الناصر يبحث عن امكانيات التوصل الى تسوية سلمية على رغم ان آماله في التوصل الى مثل هذه التسوية كانت ضعيفة منذ البداية. وقد برزت خلال المفاوضات التي ادت الى الموافقة على قرار الامم المتحدة الرقم ٢٤٢ (في ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني)

١٩٦٧) نقاط عدة ملفتة للنظر . اولها، ان آرثر جولدبرج المندوب الاميركي في الامم المتحدة قدم الى محمود رياض وزير الخارجية المصرية تأكيدات ان الكلمات التي تضمنها القرار تعني ان على اسرائيل ان تنسحب من جميع الاراضي التي احتلتها في اثناء الحرب على شرط ان نكون مستعدين- للموافقة على انهاء حالة الحرب . وثانيها، انه على العكس تماما من هذه التأكيدات ومعها النقاط الخمس التي عرضها الرئيس جونسون، فان سير الاحداث اوضح ان هناك تفاهما ضمنيا بين الولايات المتحدة واسرائيل على ارغام العرب على المفاوضات المباشرة مع اسرائيل ، ثم ان مطامع اسرائيل بالنسبة الى بعض الاراضي المحتلة كانت امرا مقبولا من امريكا . وقد اعترف جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الاميركية بذلك ضمنا فى احدى برقياته التى بعث بها الى محمود رياض وقال فيها : " انكم لا تستطيعون ان تصروا على جميع الاراضي وتتوقعوا ان تحصلوا على السلام " . وكان واضحا منذ البداية ان الاراضي التي كانت اسرائيل تنوي اغتصابها تشمل شرم الشيخ وغزة والقدس وبعض مناطق الضفة الغربية ومرتفعات الجولان .

وكان عبد الناصر يتشكك دائما بالنسبة الى القرار الرقم ٢٤٢ . وقد قال في احدى الاجتماعات المنتظمة مع كبار قادة الجيش عقد يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ، بعد ثلاثة ايام فقط من الموافقة على القرار : " دعوني أقل لكم بعض الحقائق ، ان كل ما تسمعوننا نقوله عن قرار الأمم المتحدة ليس موجهاً اليكم ، ولا علاقة له بكم ، واذا نظرتم الى ما يفعله الاسرائيليون في المناطق المحتلة ، فسيتضح لكم كل الوضوح انهم لا يعتزمون الجلاء عن هذه المناطق الا إذا ارغموا على ذلك . وارجوكم أن تذكروا ما سبق أن قلته : إن ما أخذ بالقوة لا يمكن ان يسترد بغير القوة . وليس هذا بلاغة قول ، لكني أعنيه تماماً. ثم اسمعوا هذا : لقد طلبت الى الاتحاد السوفييتي أن يزودنا بمعدات الجسور ، وقلت أني أريدها كقرض لا كهدية أو صفقة ، لأنني سأعيد هذه المعدات بعد أن نعبر القناة ، بحيث لايجد اولئك الذين سيعبرونها سبيلاً الى العودة ، ولو كنت انا مكان ليفي اشكول أو موشي ديان لفعلت مثل ما يفعلان ، انهما يريدان التوسع ، وهما يظنان ان الفرصة مؤاتية لهما للتوسع ، بل اني لا أرى انهما يستطيعان الانسحاب حتى لو أرادا ذلك ، لانهما غذيا شعبهما بآمال واسعة ووعود كثيرة . وما يقولانه الآن سيتحول لا محالة الى سياسة رسمية وسيجدان نفسيهما ملتزمين بها ، وهكذا فلستم بحاجة الى توجيه أي اهتمام لأي شيء يمكن أن أقوله في العلن عن الحل السلمي " .

ولا بد من القول ان اعمال اسرائيل وتصرفاتها خلال هذه الفترة كانت قد بدأت تهيىء عنصراً جديداً في الصراع العربي – الاسرائيلي ، ذلك أن اشتباك الشعب المصري في السابق مع اسرائيل اما بسبب الفلسطينيين كما حدث في العام ١٩٤٨ ، واما بسبب السوريين الذين بدوا مهددين كما حدث في العام ١٩٦٧ ، (في العام ١٩٥٦ كان العدو الرئيسي هو البريطانيون والفرنسيون) . لكن اسرائيل في العام ١٩٦٧ ارتكبت الخطأ الكبير حين ابرزت حقيقة ان هناك صراع أمن بينها وبين مصر ، وان العدو الحقيقي لها في المنطقة هو مصر قبل غيرها ، لأن مصر من دون غيرها اقدر على ممارسة الصراع في طليعة امة عربية لها دورها وعليها مسؤولياتها القومية والعالمية ، وكشفت الطريقة التي عاملت بها الجرحى والاسرى المصريين ، والطريقة التي عرضت بها نصرها على العالم ، والطريقة التي اتسم بها مسلكها بعد ذلك ، وكأن لها الحق في أن تنزل قواتها في أي مكان تريده من مصر ، كل ذلك كشف عن اعداد لإنزال أكبر قدر من الإهانة بعدوهم المهزوم . لقد مرغوا انوفنا في الرمال في هزيمتنا واظهروا المرة تلو المرة سعادة كبرى بما يفعلون .

ومن أجل تجنب اعطاء الاسرائيليين أية ذريعة لاستئناف المعركة قبل أن تكمل استعداداتنا الدفاعية على الأقل ، فإنه كان لابد من اصدار أمر بمنع كل أنواع اطلاق النار من جانب المصريين في جبهة القناة . وكان ذلك أمراً قاسياً على النفس ، لأن القناصة الاسرائيليين كانوا يعملون بنشاط ، وكانت الطائرات الاسرائيلية تضرب المدنيين والاهداف العسكرية ، والحقيقة انه كان أمراً مكروهاً الى درجة صعب معها على الفريق فوزي أن يصدره باسمه ، وحول مسؤوليته الى عبد الناصر بوصفه القائد الاعلى

للقوات المسلحة الذي صدر باسمه هذا القرار المرير . بل أن عدداً من الجنود قدموا الى المحاكمة العسكرية لعدم اطاعته .

وبعد فترة اشتدت غارات الطائرات الاسرائيلية الى حد اتخذ فيه عبد الناصر قراراً باخلاء مدن القناة الثلاث : بور سعيد والاسماعيلية والسويس ، وكانت النتيجة أن نزح أكثر من ٤٠٠ ألف لاجيء الى القاهرة وغيرها من مدن مصر ، وكان تكتيك الاسرائيليين يوضح بجلاء انهم يعتزمون البقاء الى ما لا نهاية على ضفاف القناة . وان ديان قال ان على اسرائيل ان تكون جهاز " طنين في آذان الشعب المصري " لتذكيره بهزيمته ودفعه الى التخلص من حكومته ، ويبدو ان الاسرائيليين يحملون في نفوسهم كراهية خاصة لطريقة الري المصري ، فقد قاموا بمحاولات عدة لضرب نجع حمادي . باعتبارها محطة ري مهمة في صعيد مصر ، كما حاولوا أن يبثوا الالغام في القناطر القريبة من القاهرة ، مما اضطرنا الى وضع خطوط طويلة من البراميل عند الكباري على النيل والقنوات الاخرى كوسيلة للحماية من الالغام العائمة بلغت نفقاتها ٧ ملايين جنيه وهذه البراميل لا تزال قائمة حتى الان – نهاية عام ١٩٧٤ - . وقد مس هذا التهديد المباشر لوسائل الري في مصر اعمق الغرائز في نفوس المصريين.

الجزء الثاني
الاتصالات العربية

وعليه بحلول شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ، كانت المرحلة الاولى التى حددها عبد الناصر في شهر يونيو (حزيران) - وهي مرحلة الدفاع البحت- قد بلغت نهايتها. فقد اعيد بناء القوات المسلحة ، وكانت المعدات ولوازمها قد تمت تقريباً ، كما بدأ الاقتصاد في التماسك والثبات استعداداً لمقاومة طويلة ، واصبح الوقت مناسباً للتفكير في المرحلة الثانية : مرحلة أعادة تنشيط الجبهة ، ولم يكن هذا ، بطبيعة الحال يعني أن تتحول مصر الى الهجوم . فذلك كان سيأتي في ما بعد شأنه شأن خطط الجبهة الثانية التي كان من المتفق عليه عندئذ أنها يجب ان تكون الاساس لأية ضربة توجهها مصر. لكن الوقف قد حان للبدء بالاعداد للمرحلتين .

وفى تلك الاثناء كان البحث عن حل سلمي هو الذي يحتل صدر كل حديث ، على رغم ان عبد الناصر قال للملك حسين في ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨ أنه فقد الامل في مهمة يارنج ، وكانت وجهة نظره ، بوجه عام ، أنه اذا امكن التوصل بطريقة ما الى الحل السلمى ، فسيكون ذلك أمراً طيباً بطبيعة الحال وأن علينا أن نركز على اقناع الرأي العام العالمي بنوايانا الطيبة وهو ما أبدت اسرائيل دائماً اهتماماً كبيراً به فى حين أننا أهملناه ، ودفعنا ثمن هذا الاهمال . وكان يرى أن النقطة الرئيسية من استمرار المفاوضات ، هي اقناع الروس بأنه ليس هناك حل سلمي ، والعمل على اشراكهم في المشكلة أكثر فأكثر .

وفي تلك الاثناء أيضاً ، كان الروس قد بدأوا يجرون اتصالات مباشرة بالامريكيين بشأن الشرق الاوسط . وجاء جروميكو الى مصر ليعرف رأينا في هذه المحادثات الثنائية . كان محمود رياض غير سعيد باحتمالاتها ، وكان يرى ان الاتصالات كلها يجب ان تتم عن طريق الأمم المتحدة . وسأل جروميكو : " وما عيب يارنج الذي تم اختياره في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ مبعوثاً شخصياً ليوثانت بشأن أزمة الشرق الأوسط " . وكان رد جروميكو عليه ستالينياً (قاطعاً) : " ليس هناك ما يعيب يارنج الا أنه لا يملك اساطيل في البحر الأبيض ولا صواريخ في الجو " . ولم يعجب الرد رياض ، وقابل عبد الناصر قبل اجتماعه الثاني بجروميكو في محاولة للحصول على تأييده في الاصرار على تشجيع يارنج

للمضي في مهمته. لكن عبد الناصر قاله له : " كلا .. اني أتفق مع الروس. ولننظر الى الأمر نظرة واقعية . ان يارنج لن يحل شيئاً . واذا بدا بالفعل أنه يقدم حلاً ، فليس ذلك الا لأن شيئاً ما قد تم ترتيبه من وراء ستار بين القوتين العظميين . اني اريد ان يكون الروس على اتصال يومي بنا ، حتى يروا استحالة الحل الديبلوماسي . فانهم بهذه الطريقة سيزيدون عونهم لنا ". وكان هناك سبب اخر وراء عدم وقوف عبد الناصر ضد جميع الاتصالات الديبلوماسية ، فقد كان يرى فيها عاملاً مساعداً لكسب الوقت ، وهو عامل كان تقديره له يتزايد باستمرار . وفي اجتماعه بقادة الجيش في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ، قال لهم أن عليهم ان يتطلعوا الى خمس سنوات تالية التدريب المركز. وقال أنه كان في بداية الأمر يظن ان المسألة لن تتجاوز بضعة شهور، لكنه أصبح مقتنعاً بأنهم- بمعجزة فقط- يستطيعون أن يقوموا بهجوم خلال ثلاث سنوات ، الا ان الحقائق كلها تشير الى خمس سنوات باعتبارها التقدير الأكثر واقعية. وفي اعقاب هذا الاجتماع على وجه التحديد اصدر الفريق رياض اوامره الى مجموعة تخطيط بأن تعد اولى خطط التدريب لعملية " تحرير ١ " التي كان هدفها الرئيسي شن هجوم عبر القناة وانشاء رأس جسر على الضفة الشرقية .

وفي بداية العام ١٩٦٨ كان عبد الناصر يركز تركيزاً تاماً تقريباً في السياسة على ثلاثة جوانب : القوات المسلحة ، والعلاقات المصرية- السوفييتية، والعلاقات العربية من حيث اتصالها ببحثه عن شريك او شركاء في الجبهة الثانية... او الجبهة الشرقية كما سميت . واحتفظ بهذه الجوانب كلها يعالج أمورها بنفسه ، أما البقية فترك امورها للآخرين .

وكان من بين اول الاجتماعات التي عقدها مع رئيس لدولة عربية بشأن مسألة الجبهة الثانية ، اجتماعاً بالملك حسين ملك الاردن في ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٨. وشرح عبد الناصر في هذا الاجتماع رأيه في أن الحل السلمي لن يسفر عن شيء ثم قال ان السؤال الذي لابد أن نطرحه جميعاً على أنفسنا هو السبب في استمرار هذه الفرقة بين المائة مليون عربي الذين لا تربطهم بعضهم ببعض الا أقل الروابط المؤثرة . وقال ان ما يثير قلقه بوجه خاص انه ليس لديه اتصال حقيقي مع سوريا . وأضاف: " اننا، جميعاً ، لا نزال نعيش في حالة تمزق وردود فعل عصبية نتيجة لهزيمة يونيو (حزيران)... وكان الملك حسين جاء لتوه من السعودية ، وقال ان لديه انطباعاً أن السعوديين ليسوا مستعدين للاستمرار الى الأبد في تقديم الدعم المالي النقدي الى الدول العربية كما اتفق في الخرطوم ، وقال ايضاً أنه قلق لأن أشكول ، (رئيس وزراء اسرائيل عندئذ) حاول ان يبعث اليه برسالة مع يارنج . وقد رفض الرسالة ، لكنه يظن أن يارنج يتعرض لضغط شديد من جانب اسرائيل لكى يحمل الدول العربية على ايفاد مبعوثين خاصين الى قبرص للا لتقاء بممثل عن اسرائيل بحضور يارنج . وقال انه أبلغ يارنج ان ذلك أمر يخرج عن دائرة بعثته .

كذلك فان الملك حسين قال ان يارنج كان قبل زيارته الأخيرة بوقت قصير لعمان قد قابل ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، وطلب منه ان يحدد بالضبط ما تريده اسرائيل ، وان ايبان راح يلقي على يارنج محاضرة عن الاسباب التي ادت الى حرب ١٩٦٧ ، أعقبها بتفسير اسرائيل للقرار الرقم ٢٤٢. وكان من الواضح انه لايرى في القرار اكثر من جدول أعمال لعدد من الموضوعات التي يجب أن يتفق عليها في مفاوضات مباشرة . وقد طلب يارنج منه قائمة مكتوبة بهذه الموضوعات فقدمها اليه، وكانت تشمل: ١- المسائل السياسية والقانونية . ٢- انشاء حدود دائمة آمنة . ٣- المسائل الانسانية .٤- التعاون الاقتصادي والثقافي والتكنولوجي . ٥- الاماكن المقدسة والمرور اليها .

وحين قرأ الملك حسين هذه القائمة على عبد الناصر، التفت عبد الناصر الى وزير الخارجية محمود رياض ، وكان يحضر الاجتماع ، وسأله : " أهذا ما قاله لنا يارنج أيضاً ؟ ". ورد رياض : " أجل.. مع اختلاف واحد ، هو انه بدلاً من البند الرقم ٣ في القائمة الاردنية ، فان البند الرقم ٣ لدينا هو: فتح قناة السويس للملاحة بالنسبة الى سفن كل الدول من دون تمييز " .

وكـان الملـك حسين- الـى حد مـا- يمثـل دور الوسـيط ، لأنـه لـم يكـن هنـاك اتـصال مباشـر بـين مـصر والسعودية بعد مؤتمر الخرطوم . كـان الـسعوديون يـدفعون نـصيبهم مـن الـدعم ، وهـذا كـل شـيء . فـالى جانب الصعوبات الأخرى ، فـان الـسعوديين كـانوا يخـشون مـن أن يكـون المـصريون يجلـون عـن الـيمن ليستولي عليها الـروس . وحـدث قبـل ذلـك بوقـت قـصير ان أسـقطت فـوق احـدى منـاطق القبائـل المواليـة للمملكة العربية السعودية طائرة أثار السعوديون لسقوطها ضجة كبيـرة ، اذ زعمـوا ان قائـدها روسـي... لمجرد ان وجهه كان أبيض ، في حين انه كان في الحقيقة سوريا . وكان الملك سعود الذي كان يقيم فـي مصر من بين الأسباب الأخرى لسوء التفاهم . وحين كان عبد الناصر في الخرطوم ، دعا الملك فيصل الى زيارة القاهرة ، لكن فيصل لـم يكـن مـستعداً لأن يقبـل تلبيـة الـدعوة مـادام أخـوه مقيمـاً فـي القـاهرة . وكان موقف عبد الناصر في هذا الشأن ان سعود لاجـئ سياسـي ، ولا يمكـن اخراجـه مـن الـبلاد . وزاد الأمر سوءاً ان الملك المنفي كان يقيم فى منزل كان فيصل يعتبره مـن املاكـه . وحـين توجـه اليـه بعـض المسؤولين المصريين ، بناء على طلب من فيصل ، يطلبون منه مغادرة المنزل انفجر في البكـاء ، وقـال ان من المستحيل عليه ان يغادره .

وكـان مـن بـين الـزوار العـرب الـذين جـاؤوا الـى القـاهرة فـي ذلـك الوقـت الـرئيس العراقـي عبـد الـرحمن عارف الذي كان في طريق عودته من باريس حيث اجتمع مع الرئيس ديجول . وكان عبـد الناصـر شـجع العراقيين علـى أن يجـسوا نـبض الفرنـسيين لمعرفـة مـدى اسـتعدادهم لان يكونـوا مـوردين للـسلاح. فعلـى رغم انه كان يعرف ان الاتحاد السوفييتي لا بـد ان يظـل دائمـاً المـصدر الرئيـسي الـذي لـيس أمـام مـصر بديل في الاعتماد عليه ، كمورد رئيسي للسلاح ، فانه قد تنشأ فجوات يمكن دول اخرى أن تسدها. وكـان في طائرة الميراج التي ينتجها الفرنسيون كمقاتلة قاذفة ، ما يناسـب احتياجـات مـصر. بينمـا ظـل الاتحـاد السوفييتي لسنوات عدة يعتمد على القذائف المتوسطة المدى والطويلـة المـدى ، ولـم يبـدأ التفكيـر فـي مـا تتطلبه الحرب المحدودة من أسلحة تقليدية الا فـي الفتـرة الأخيـرة . وقـد ذكـر الـرئيس عـارف ان زيارتـه لفرنسا حققت نجاحا فاق ما كان يتوقعه ، وقـال انـه اعجـب جـداً بـالرئيس ديجـول ، وانـه حـين طلـب منـه الطائرات جاءه الرد على الفور : " نحن مستعدون ".. وقال عارف انه احس بـأن ديجـول لـم يكـن يحـب ان يتكلم بصراحة امام وزرائه ، ولم يتبجح فـي الكـلام معـه ، الا فـي اثنـاء توديعـه لـه علـى سـلالم قـصر الاليزيه ، حيث قال له بلهجة من يتحدث عن خبرة : " الهزيمة يجب الا تعني انهيار الروح المعنوية " . وأضـاف : " أنت تعرف اننا نساندكم .. حتى لو احتجتم الى الجيش الفرنسي " .

والى جانب الزوار العرب الذين جاؤوا الى القاهرة للقاء عبد الناصر، كـان هنـاك فـي ذلـك الوقـت العديـد مـن الوسـطاء فـي القـاهرة وخارجهـا . ومـن بـين هـؤلاء نـاحوم جولـدمان (رئـيس المنظمـة الـصهيونية العالمية) الذي حاول الاتصال بعبد الناصر عن طريق الـرئيس تيتـو، ولكـن اتـضح بعـد خطـابين تبادلهمـا كل من جولدمان وتيتو مع الآخر ان الأمر لن ينتهي الى شيء . وكانـت هنـاك محاولـة أخـرى أكثـر جديـة فـي هـذا الـصدد قـام بهـا الرومـانيون الـذين كـانوا وحـدهم مـن بـين أعـضاء دول الكتلـة الـشرقية الـذين لـم يقطعـوا علاقـاتهم باسـرائيل فـي العـام ١٩٦٧ . والحقيقـة ان جدعون رافائيل - وهـو أحـد كبـار موظفـي وزارة الخارجيـة الاسرائيلية - كـان فـي ذلـك الوقـت يقـضي بـضعة أسـابيع فـي بوخارسـت، ويحمـل معـه رسائل عن حكومته تؤكد اهتمامها باجراء اتصالات مع مصر. وقد جاء نائب وزير الخارجيـة الرومانيـة بترو بورناكو في أكثر من زيارة للقاهرة حينذاك . ولـم يحـاول عبـد الناصـر ان يـصده احساسا منـه بـأن الرومانيين يعبرون على الارجح عن وجهة نظر في الكتلة الشرقية اوسع مما كان معترفـاً بـه بوجـه عـام. وقـال عبـد الناصـر لـه يومـاً : " لا بـأس.. ان مـا اريـدك ان تـأتيني بـه مـن الاسـرائيليين، خريطـة تبـين مـا يـرون أنــه الحــدود النهائيــة التــي يجــب ان تكــون لاســرائيل " . وبعــد ذلــك لــم يــسمع عبــد الناصــر مــن الرومانيين شيئاً .

ولم تخرج محاولة هيلاسلاسي في هذا الصدد عن قصة الوساطة الرومانية. كان الامبراطور متعاطفاً، يقول انه هو نفسه قد فقد بلاده يوماً، وان الايطاليين عرضوا عليه في أثناء وجوده في المنفى مبلغ ثلاثة ملايين جنيه وأربعة قصور في مقابل تنازله عن العرش . وكان كذلك متصلا اتصالا مباشراً بالنزاع العربي- الاسرائيلى ، لأن لديه وثائق تثبت ان الرئيس ترومان عرض على الاسرائيليين في وقت ما أجزاء من اثيوبيا لتكون وطناً قومياً لهم . وقد طلب منه عبد الناصر الطلب نفسه. وقال له : " انك ستقابل ايبان في أديس أبابا خلال أيام قليلة .. فاطلب منه خريطة عما يرون انه الحدود النهائية التي يجب ان تكون لاسرائيل " . ومرة أخرى لم يسمع شيئاً بعد ذلك .

وكانت المشكلة الرئيسية العسكرية التي واجهت عبد الناصر ومستشاريه في ذلك الوقت ، حين كانت حرب الاستنزاف في بدايتها، هي طريقة الاحتفاظ برأس جسر على الضفة الاخرى من قناة السويس . وقد نجحت دوريات الكوماندوس التي تعمل ضمن الخطط التي تحمل الاسمين الرمزيين " تحرير١" و " تحرير٢" في اجتياز القناة والبقاء في سيناء لفترات تصل الى ١٤ ساعة قبل أن تعود . وكانت البعثة العسكرية الروسية ترى ان تقضي هذه الدوريات فترات اطول في سيناء ، لكن عبد الناصر كان يرى أن مصير القائمين بأى عمل يتجاوز الغارات التي تقوم على أساس : اضرب واجر ، هو الابادة اذا لم يكن هناك غطاء من القذائف يحميهم . وكان على مصر، باختصار، أن تواجه حقيقة ان اسرائيل احرزت تقدماً كبيراً عليها في الجو، وأنه ليست هناك وسائل سريعة للحاق بها الا عن طريق بناء نظام للدفاع الجوي .

كان المعروف من تقارير المخابرات ان اسرائيل لديها نحو ٥٠ من صفوة الطيارين و ملاحي الطائرات الذين كانوا ينقلون من جبهة الى أخرى ، ومن مهمة الى أخرى ، والذين كانت ساهمت اعمالهم الفذة في بناء اسطورة السلاح الجوي الاسرائيلي الذي لا يقهر . وكانت هذه الاسطورة في حد ذاتها، عامل ردع فعال، لكن تجربة حرب اكتوبر (تشرين الأول) أظهرت ان المستوى العام للسلاح الجوي الاسرائيلي لم يكن بأي مقياس على تلك الدرجة من الكفاءة التي كانت لتلك الصفوة القليلة من الطيارين .

واذ بدا واضحاً أن من المستحيل على مصر أن تحقق التفوق في الجو- او حتى الوقوف فيه على قدم المساواة- فاننا كنا مضطرين الى البحث عن بدائل أخرى .وهكذا عادت مرة أخرى الى توجيه اهتمام متزايد الى فكرة الجبهة الثانية ، لكنها لم تخرج بالكثير من هذه الاجتماعات ، وكانت المشكلة الرئيسية هي مشكلة الصراع بين سوريا والعراق . كان حزب البعث هو الحاكم في سوريا ، وكان بين أعضاء الحكومة العراقية عدد من البعثيين، ولكن عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية لم يكن بعثياً . وحين وقع الانقلاب البعثي الذي أقصاه عن حكم العراق، ظل الصراع بين جناحي البعث كما كان على اشده .

وكانت الخلافات الشخصية بين الافراد والحكومات سبباً في اضاعة الكثير من الوقت في اجتماعات كان المفروض عقدها لبحث الاستراتيجية . صحيح ان حصيلة هذه الاجتماعات من الورق كانت كبيرة، ولكن- كما شكا عبد الناصر مرة - " أظنني قرأت ووقعت عدداً ضخماً من الوثائق... ولكن ماهي حصيلة ذلك كله " ؟ وكان ما يقلقه على وجه الخصوص ، هو ما اذا كان هناك أي ضابط عربي يستطيع قيادة الجيوش المشتركة في الجبهة الشرقية . وكان يرى ان لدينا ضباطاً قادرين على قيادة لواء وربما قيادة فرقة ولكن قيادة جيش بحاله امر يتطلب قدرات من طراز آخر، ولم يكن يعرف أين يعثر على اصحاب مثل تلك القدرات . وكان يحذر كبار الضباط باستمرار من أخطار التهاون في الأمور ، او اهمال عنصر السرعة في الحرب الحديثة ، ويشعر أن الجيوش العربية منتشرة اكثر من اللازم ، وانها لا تزال محكومة بالعقلية الدفاعية ، كما كان يرى ان الاعتبارات السياسية هي التي تحكم الاستراتيجية العسكرية بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح .

وكان عبد الناصر هو الذي شجع الرئيس عارف على السفر الى فرنسا ، وقال له : " حتى لو لم يكن موقف فرنسا مؤيداً لنا كما هو حاله ، فلا بد لنا من أن نتظاهر بانه مؤيد لنا " لأننا محتاجون الى جسر يربطنا بالغرب " . كذلك فإنه شجع العراقيين على محاولة الحصول على طائرات الميراج. وبالطريقة نفسها ، فانه حين ذكر الملك حسين انه يبحث عن طلب اسلحة من الروس (بعد ان احس بخيبة الأ مل بالنسبة الى ما يحصل عليه من الولايات المتحدة وبريطانيا) نصحه عبد الناصر بالأ يفعل ذلك ، وقال ان من الخطأ ان تعتمد اسرائيل اعتماداً كلياً على أسلحة الغرب ، وان يعتمد العرب اعتماداً كلياً على الاسلحة الروسية . وأضاف " خذ اسلحة أمريكية ان كنت تستطيع ان تحصل عليها ، وأضف اليها ما تستطيع ان تأخذه من أي مكان آخر " تلك كانت نصيحته للملك حسين .

الجزء الثالث
دخول الفلسطينيين

بحلول ١٩٦٨ بدأ ارهاق الاحداث يؤثر على صحة عبد الناصر ، كان عبد الناصر يشكو من مرض السكري منذ سنوات عدة ، وأصبح الآن يتعرض لنوبات من الألم الشديد . وفي شهر يوليو (تموز) سافر الى الاتحاد السوفييتي ليبحث- اساسا- في اسباب التأخير في شحنات الأسلحة ، وليؤكد للسوفييت مرة اخرى الحاجة الى مقاتلة- قاذفة تستطيع ان تواجه الطائرات الاسرائيلية " الفانتوم " الأميركية الصنع . وانتهز فرصة وجوده في الاتحاد السوفييتي لاجراء فحص طبي في مستشفى بيرفيكا . وفي تلك الظروف ، فضل الا يعامل كضيف رسمي ، ونزل في احد بيوت الضيافة الكبيرة في تلال لينين المطلة على نهرموسكفا . وكانت للرحلة اهميتها من ناحية اخرى ، لأن عبد الناصر صحب معه ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تلك اول مرة يذهب فيها عرفات الى موسكو.

وكانت المرة الأولى التي اتصلت فيها جماعة " فتح " بالسلطات المصرية في العام ١٩٦٦ . وفي ذلك الوقت كانت المخابرات المصرية مسؤولة عن كل اوجه النشاط السري والحركات الوطنية في العالم العربي ، وكانت ، للأسف، مقتنعة بأن " فتح " فرع من جماعة الاخوان المسلمين ، التي حلتها السلطات المصرية وأوقفت نشاطها عقب المحاولة التي قام بها احد اعضائها لاغتيال عبد الناصر سنة ١٩٥٤ وكان لهذا الاعتقاد اثره فى ان الاتصالات الأولى لم تسفر عن شيء . وحين وصل خالد الحسن (أبو السعيد) الى القاهرة كممثل عن " فتح " جاء لمقابلتي ، وحاول ان يشرح لي ما تمثله حركة " فتح " ، وحاولت ان أمهد له السبيل ، لكن الشكوك بالنسبة الى الحركة كانت من القوة بحيث كان من المستحيل اجراء اي اتصال في شأنها مع عبد الناصر او بالمشير عامر . وفي بداية العام ١٩٦٧ كان عبد الناصر قد بدأ يفكر في الطرق والوسائل لتنشيط جبهة ثانية ، وكان اسم " فتح " قد بدأ يرتبط همسا بعدد من العمليات العسكرية المحدودة ، كان من شأنها ان اصبحت الاحتمالات اكثر اشراقا . ثم جاء الى القاهرة فاروق قدومي (أبو اللطف) ، وانضم اليه بعد ذلك صلاح خلف (أبو اياد) ، وكانا على موعد معي جرى ترتيبه سرا، وقد صحبتهما لمقابلة عبد الناصر ، وتم الاتفاق على ان ينضم اليهما ياسر عرفات ، وان يضمنا كلنا اجتماع آخر .

وتحدد موعد للاجتماع ، لكن المخابرات المصرية لم تكن قد غيرت رأيها بالنسبة الى " فتح " . وفي صباح اليوم المحدد للاجتماع تلقيت مكالمة تلفونية من احد اعوان عبد الناصر قال فيها : " اننا لا نريد ان نزعج الرئيس ، لكننا نجد انه لا بد ان نبلغك اننا لسنا مرتاحين الى نوايا الرجال الثلاثة الذين سيتوجهون معك لمقابلة الرئيس بعد ظهر اليوم . ونرجو ان تبلغهم انهم سيخضعون للتفتيش قبل مقابلة الرئيس ، وان سلاحهم سينزع منهم اذا كانت هناك ضرورة لذلك " . وقلت : " أرجوكم ... اتركوا هذه المسألة لي .. ولا تفتشوا احداً " .

وجاء الفلسطينيون الثلاثة الى مكتبي من مكان مؤتمن في القاهرة تستخدمه " فتح " في قلب العاصمة لنذهب معا الى بيت عبد الناصر في منشية البكري . وصحبتهم في سيارتي التي توليت قيادتها بنفسي. وفي الطريق حاولت ان اعالج المسألة باكبر مقدار من اللباقة والذوق ، وقلت لياسر عرفات الذي كان يجلس الى جانبي في المقعد الامامي : " ما هذا الذي تحمله... مسدس ؟ انك ستخيف الجميع .. وانت يا ابو اياد.. هل تحمل مسدسا ايضا " وقال عرفات انه يشعر بانه عار تماما من دون مسدس ، بينما قال ابو اياد انه لا يستطيع أن يخطو خطوة بدون مسدس . وقلت : " وانت يا ا بو اللطف؟ " فرد : " أنا مدني، ولا احمل مسدسا ". وعندما وصلنا الى منزل عبد الناصر ودخلنا الى الصالة جاء سكرتير عبد الناصر يهمس في اذني انه لابد لحرس الرئاسة من ان يأخذوا مسدسات السادة ، فقلت له ان يبتعد. وفي تلك الاثناء تنفست الصعداء اذ رأيت عرفات وابو اياد يخلعان أحزمة مسدسيهما تلقائيا، ويضعانهما على احد المقاعد لمجرد ان صعدنا لمقابلة عبد الناصر.

وبدأ عبد الناصر الاجتماع ضاحكا : " طبقا لرسالة تلقاها رجال مخابراتنا من الكويت ، فانكم انتم الثلاثة انما جئتم الى هنا لتغتالوني " . وقلت ان هذا هو السبب في اني حاولت ان احملهم على خلع سلاحهم . وقد احتج ثلا ثتهم بأن هذه الرسالة لا تزيد عن مجرد محاولة يقوم بها البعض للوقيعة بين مصر و " فتح ". وعندئذ شرح عبد الناصر وجهة نظره في حركة المقاومة الفلسطينية ، وقال انه لا يرى سببا لأي تناقض بين مصر وبينها ، واننا قبلنا قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ على رغم اننا لا نأمل كثيرا في ان يؤدي الى شيء لأنه يحقق مطالب مصر وسوريا والأردن اذا طبق تطبيقا صحيحا. اما بالنسبة الى الفلسطينيين فان مصر تعلم ان القرار لا يحقق مطالبهم ، " ولديهم كل الحق في عدم قبوله "، واضاف : "وليس هناك من سبب يدعوكم الى عدم معارضة القرار علانية ، لأنه لم يوضع من اجلكم " .

ومضى عبد الناصر في حديثه مع الرجال الثلاثة فذكر ان من بين المشاكل التي تواجه مصر مشكلة عدم وجود عنصر فلسطيني في الصراع . ثم قال : اني سأشعر بسعادة لا توصف لو استطعتم ان تمثلوا الشعب الفلسطيني ، وتمثلوا الارادة الفلسطينية على المقاومة : سياسيا باشتراككم ، وعسكريا باعمالكم ". وقال انه يجب على " فتح " ان تكون مستقلة تماما عن جميع الحكومات العربية ، وان يكن عليها ان تنسق اعمالها معها . وتساءل : "ولماذا لا تكون بالنسبة الينا كما كانت جماعة شترن؟.. او كجماعة بيجين (بالنسبة اليهود) ؟.. ان عليكم ان تكونوا سلاحنا غير المسؤول .. وعلى هذا الاساس فاننا سنقدم اليكم كل ما نستطيع من عون ".

وكان الاجتماع طيبا، بدأت السلطات المصرية بعده تنسيق نشاطها مع " فتح " وتعاون في تدريب رجالها وتزويدهم بالسلاح . ولم يكن الاردنيون سعداء بهذا التطور، وفي يوم اكتشفوا طائرتين من بين الطائرات التي وصلت الى مطار عمان كانتا محملتين بالسلاح المرسل الى رجال المقاومة الفلسطينية، وارسل الملك حسين رئيس وزرائه بهجت التلهوني الى القاهرة اكثر من مرة يشكو من العون الذي تقدمه مصر الى ا لمقاومة .

وفي اعقاب سلسلة الغارات الاسرائيلية على قواعد المقاومة في الاردن، بدأت المقاومة محاولات لشراء السلاح من اوروبا الغربية . وكان زعماء المقاومة قد قرأوا في مجلة " افييشن ويك " (اسبوع الطيران) عن صاروخ مضاد للطائرات اسمه " رد اي " (العين الحمراء) يمكن رجلا واحدا ان يحمله (وهو الصنو الاميركي لصاروخ "ستريلا " الروسي الذي لعب دورا بالغ الاهمية في حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ . ولما كانوا يريدون ذلك الصاورخ ، فاني اقترحت على عبد الناصر ان يقدمهم الى الروس يتفاوضون معهم للحصول على الاسلحة منهم ما دامت متطلبات المقاومة تفوق المدى الذي تستطيع مصر ان تزودهم به بسهولة .

وهكذا سافر عرفات مع عبد الناصر الى موسكو في العام ١٩٦٨، وقد سافر بجواز سفر مصري صدر اولا باسم محسن أمين ثم تغير باسم عبد الفتاح ابراهيم ، ووضع اسمه ضمن قائمة اسماء الفنيين من اعضاء الوفد . وكانت الطائرة التي سافرنا عليها طائرة سوفييتية ، لأن الروس كانوا يرون ان هناك خطرا حقيقيا على سفرنا على طائرة مصرية احتمالاً لان يهاجمها الاسرائيليون فوق البحر الابيض المتوسط . وطوال الرحلة التي استغرقت خمس ساعات كان عبد الناصر يحس بالام شديدة ولا سيما في ساقيه وفخذيه ، وقد قضى الرحلة كلها راقدا على سرير. وحين اقتربنا من موسكو ذكرته ان الفرصة لم تتح لعرفات للتحدث اليه خلا ل الرحلة وأقترحت أن آتي به اليه . ليبحثا في الخطة معا خلال ربع الساعة الباقي على هبوط الطائرة . ووافق عبد الناصر على الاقتراح، ثم قام وارتدى ملابسه وبعدها جئته بعرفات . لكن الطائرة تعرضت في اثناء الهبوط لعاصفة جوية ، ازرق خلالها لون عرفات، وبذل جهدا جبارا للسيطرة على نفسه حتى لا يبدو- وهو زعيم " فتح "- فى صورة غير مناسبة في اول زيارة له لموسكو...

وانقضى معظم اليوم الاول في بحث المشكلة الاصلية : مشكلة امدادات السلاح . وكان لدى السوفييت بعض الشكوى من ان مستشاريهم في مصر لا يلقون التعاون الكافي ، لكننا استطعنا ان نتوصل الى اتفاقية جديدة بشأن دفع مرتبات هؤلاء المستشارين بالجنيه الاسترليني . وبعد تناول الغداء قدم عبد الناصر ياسر عرفات الى كوسيجين و بريجنيف وبودجورني . وفي اليوم التالي طلبوا من عرفات ان يحضر الى مبنى اللجنة المركزية حيث قابل هازاروف مسؤول حركات التحرر الوطني واثنين من الجنرالات، وقدم اليهم فكرة عن اهداف المقاومة وقوتها واحتياجاتها .

وصباح اليوم الثالث توجه عبد الناصر الى المستشفى، وصحب معه انور السادات وكان عضوا في الوفد المصري . واذكر اني قضيت ذلك الصباح في السفارة المصرية اكتب مقالي، والتقيت الفريق عبد المنعم رياض الذي كان يضع قائمة باحتياجاتنا من امدادات السلاح ، وتوجهنا من هناك الى البيت الذي يقيم فيه عبد الناصر على تلال لينين في نحو الساعة الواحدة . وكان عبد الناصر قد عاد من المستشفى وترك ورسالة بأنه يود ان يراني . وكنت اتوقع ان القاه في حديقة المنزل لانه كان وعد بأن يقابل ياسر عرفات وانا معه في الحديقة التي تطل على نهر موسكفا والتي تغطيها اشجار الكريز. وكانت هذه اول زيارة يرى فيها عبد الناصر أشجار الكريز محملة بالثمار، وقال عندئذ : " عندما اعود من المستشفى سنقطف كلنا مزيدا من ثمار الكريز لناكلها على الغداء ". ولكن قيل لي انه ليس في الحديقة وانما في غرفته، فصعدت اليه. وعلى السلالم التقيت انور السادات وسألته عن صحة الرئيس، وعن نتيجة الكشف عليه في المستشفى . ورد السادات بأن كل شيء على ما يرام ، وان الامر لا يعدو مجرد بعض الروماتيزم ". ودخلنا معا الى غرفة الرئيس .

وجدنا عبد الناصر راقدا على السرير وهو يرتدي " البيجاما "، وكان الألم الشديد باديا عليه بوضوح. ورأيتني أسأله : "ما هذا؟.. لا تقل لي انه روماتيزم " . ونظر عبد الناصر الى السادات وقال : " انور.. أظن ان من الأفضل ان تقول الحقيقة لمحمد " . وقلت للسادات : "ما الخبر؟ ". فقال : " ليس بالامر الخطير.. انه تصلب شرايين في الساقين سببه زيادة نسبة السكر الناجم عن مرض السكر . لكنهم يقولون ان من الممكن شفاؤه بالعلاج بالمياه المعدنية في سخالطوبو". وقال عبد الناصر: " لقد تحدثت مع انور في هذا الشأن في اثناء عودتنا من المستشفى، لانهم يرون ضرورة هذا العلاج ، والا فان الحالة قد تصبح خطيرة ".

وفي هذه اللحظة نقر الفريق عبد المنعم رياض - وكان عبد الناصر قد ارسل طلبه ايضاً- يستأذن في الدخول ودخل ، وجلس الى جانبي على طرف سرير الرئيس - بينما كان السادات يجلس على كرسي- واستمع منه الى حقيقة مرضه . وهكذا اصبح عدد من يعرفون اربعة . وكادت الدموع تطفر من عيني الفريق رياض ، لكنه حاول اخفاءها . وقال عبد الناصر وهو يحاول ما في وسعه ان يطمئننا : " على

اي حال ، فانهم يقولون لي ان المسألة ليست خطيرة اذا اجريت العلاج اللازم . وعلى ذلك فاني سأعود الى القاهرة لاحتفالات ٢٣ يوليو، (تموز) ، وبعدها مباشرة سأسافر الى سخالطوبو. وهم يقولون ان مدة العلاج قد لا تستغرق اكثر من نحو شهر". ثم قال انه لا يريد ان يتناول اي طعام للغداء ، وانه يحس بالتعب ، وطلب الينا ان ننزل الستائر على نوافذ غرفته ونتركه لينام .

وخرجنا ثلاثتنا ، وذهب السادات ليحصل على قسط من الراحة ، ونزلت مع الفريق رياض الى الحديقة. وكان الفريق في اشد حالات القلق ، وسمعته يقول : "ستكون كارثة محققة لو حدث له شيء ، اذ لا يمكن انسانا آخر ان يفعل كل ما يفعله. تصور انه كان يخفي كل هذه الالام طوال هذه الفترة التي بذل فيها من الجهد ما بذل ... ذلك لم يخطر لي على بال أبداً ".

وهكذا عدنا من موسكو، وابلغ عبد الناصر مجلس الأمة انه سيسافر للعلاج في سخالطوبو. ولأول مرة ادرك الشعب ان هناك ما يشكو منه الرئيس بالنسبة الى صحته.

وكان من رأي البروفسور شازوف الذي اشرف على علاج عبد الناصر انه اذا استمر علاجه سنوات عدة فانه سيبرأ تماما . وكان المفروض ان يسافر الرئيس الى سخالطوبو لفترة شهر آخر من العلاج في يوليو (تموز) ، لكن السفر أجل الى سبتمبر (ايلول) لأن حرب الاستنزاف كانت بدأت تسخن ، ولأنها الفترة التي بدأت فيها غارات العمق الاسرائيلية على مصر، وكانت نجع حمادي ونظام الري المصري كله هدفها .

وفي اوائل العام ١٩٦٩ بدأ الروس يزودوننا وبصواريخ " ستريلا " المحمولة والتي تستخدم ضد الطيران المنخفض ، وبسيارات " جراد" المدرعة المزودة بالعديد من قذائف الصواريخ . وكان ألكسندر شلبين، عضو المكتب السياسي هو الذي احضر معه اول قائمة بهذه الامدادات . ، قال له عبد الناصر عندما التقاه اننا وان نكن بحاجة دائمة الى المزيد من الامدادات السوفييتية فان على الروس الا يظنوا اننا لا نقدر ما قدموه ايضا بالفعل ، واضاف : " اني اقول دائماً لا صدقائنا العرب ولشعبنا المصري انه حتى وان يكن البطء طابع الروس الا انهم في النهاية يعطوننا ما نطلب . وهذا هو اهم شيء ، وهوما يجعلهم مختلفين عن الأمريكيين . ان الملك حسين سافر اكثر من مرة ليقابل الرئيس جونسون ويطلب منه سلاحاً ، لكنه لم يحصل على طائرة واحدة . وانتم في بعض الأحيان تثيرون غضب من يتعاملون معكم.. لكنكم في النهاية تعطون " .

وحين جاء سبتمبر (ايلول) كان الموعد تحدد لعقد مؤتمر مهم في القاهرة لحكومات الدول التي اطلق عليها اسم " دول المواجهة " حضره ممثلون عن سوريا والاردن والعراق ، والرئيس السوداني جعفر نميري – الذي كان تولى الحكم في السودان عقب انقلاب حدث في شهر مايو (ايار) – ثم انضم اليه بعد انعقاده بوقت قصير الرئيس الجزائري هواري بومدين . وكان لاجتماعات مؤتمر المواجهة هذه اثر عجيب في بعض الدول العربية الاخرى التي لم تكن مشتركة اشتراكا فعليا في المعركة والتي كانت مع ذلك تشعر بشيء من الغيرة لعدم اشتراكها في هذا المؤتمر. وعلى سبيل المثال فأن الملك الحسن ، ملك المغرب، اختار وقت انعقاد هذا المؤتمر ليدعو الى فكرته في عقد مؤتمر " قمة" عربي جديد . وقد اشار عبد الناصر اشارة خفيفة الى هذا النوع من المواقف خلال كلمة القاها في احد اجتماعات المؤتمر حين قال : " اننا نريد ان نرى الجميع حاضرين هنا، لكني لست واثقا مما يمكن ان يحدث حين نجتمع كلنا معا. ان الكثير مما يقال يتسرب ، وتبرز الى السطح اغرب المنازعات الشخصية . واذكر، على سبيل المثال، اني قابلت الرئيس بورقيبة منذ فترة غير بعيدة ، وكنا غارقين في الحديث في مسائل سياسية خطيرة حين رأيته ينظر الى فجأة ويقول : قل لي .. لماذا أنت طويل وانا قصير؟ " وقد ذهلت للسؤال، وقلت اني لا اعرف ردا عليه وان عليه ان يسأل الله سبحانه وتعالى . واظن ان لدينا بالفعل ما يكفينا من

المشاكل التي لم تجد حلاً ، ولسنا بحاجة الى اضافة مزيد لها من نوع : لماذا بعض الناس طوال وبعضهم قصار " .

وفي الجلسة الأولى للمؤتمر التي عقدت يوم اول سبتمبر (ايلول) قرأ الفريق محمد فوزي تقريراً مهما عن الموقف السياسي والعسكري اعده رؤساء اركان دول المواجهة، اختتم بأنه في حال التنسيق اللا زم بين الجيوش المعنية (والذي يفترض بطبيعة الحال خلق جبهة ثانية عاملة) فانه يصبح في امكاننا ان نكون مستعدين للمعركة خلال ثمانية عشر شهراً .

الجزء الرابع
الثورة الليبية

كان الملك حسين يلقي خطابه في الجلسة الأولى للمؤتمر حين تلقى عبد الناصر وهو في الجلسة اول نبأ يقول ان انقلابا وقع في ليبيا ضد الملك ادريس . وكان الحدث مدعاة الى بعض الحرج لما هو معروف عن العلاقات الوثيقة التى تربط الملك حسين بالملك ادريس ، ذلك ان الدول " التقدمية " ستشعر لا محالة ان اقصاء احد الملوك قد يكون مقدمة لاقصاء ملك آخر .

وبمجرد ان اذيع النبأ راحت الوفود تناقش اهميته . وكان عبد الناصر لبقا حين وقف وقال : " أذكر اننا كنا في احدى الفترات في حاجة ماسة الى المال لشراء السلاح . وقد ارسلت حسن صبري الخولي لمقابلة الملك الذي وعد بأن يقدم الينا على الفور مبلغ ٣٠ مليون جنيه ، ولم يكن له الا طلب واحد هو : ان نعيد اليه " مسبحة " كان احد اجداده قد اعطاها للجامع الأزهر ولا تزال ، على ما يظن، معلقة هناك . وقلت لحسن صبري الخولي ان يذهب الى الازهر ويأتي بالمسبحة ويقدمها الى الملك . ففعل ".

وكان الجميع بطبيعة الحال يحاولون التخمين حول من يمكن ان يكون هؤلاء الذين قاموا بالانقلاب. هل هم بعثيون؟ هل هم ناصريون؟ ام ماذا؟ وجاء اول مفتاح لحل لغز "هويتهم من قسم الاستماع في "الاهرام " الذي التقط واحدا من بلاغاتهم الأولى وفيه ان إهدافهم هي : " حرية، اشتراكية ، ووحدة". وكان في ذلك ما يبين انهم ليسوا بعثيين ، لأن شعار البعث كان دائما : " وحدة ، حرية ، اشتراكية " .

وعلى رغم ان ترتيب كلمات الشعار قد لا يبدو مهما ، الا انه يجسد الخلا ف بين عبد الناصر والبعث، فقد كان عبد الناصر يرى ان الوحدة لا يمكن ان تتحقق من دون الحرية ، وبالتالي فلا بد للحرية من ان تتحقق اولاً . وعلى أي حال فأني حين قرأت تقرير الاستماع اتصلت بعبد الناصر في قصر القبة وقلت له اند يبدو ان من قاموا بالثورة قريبون منا في تفكيرهم . وفي الوقف نفسه تقريبا اوفد مجلس الثورة مبعوثا هو آدم حواس ، للاتصال بالقنصلية المصرية في بنغازي وابلاغها ان رجال الثورة يريدون مقابلة اي شخصية من مصر. وحين سئلوا عمن يريدون مقابلته بدا وكأن بين الأسماء التي تذكروها لحظتها اسمي اما بسبب مقالاتي في " الأهرام " . وهكذا اتصل بي عبد الناصر وقال : " يبدو ان الناس في بنغازي يريدونك .. وعلى هذا فمن الأفضل ان تسافر الليلة " .

واعدت طائرة خاصة انطلقت بي الى بنغازي . وكانت الرحلة سيئة للغاية . كان مطار " العضم " لا يزال تحت سيطرة الانجليز، وحين اقتربنا منه قال الطيار انه تلقى اشارة تسأله عمن يكون ، وعمن معه من الركاب ، وعن وجهته . وطلب مني تعليمات يرد بها على الاشارة ، ولما لم تكن هناك ردود تعطى له ، فانه قطع اتصاله ببرج المراقبة في مطار العضم وحلق بطائرته شاهقاً . ومن حسن الحظ ان هذه الحركة نجحت لاننا لم نسمع شيئاً بعد ذلك . وكان مطار بنغازي غارقا في الظلام حين اقتربت طائرتنا منه ، ثم اضيئت بعض انوار احد ممراته لتكشف عن سيارات مصفحة تقف على جانبي الممر.

وحين نزلت من الطائرة وجدت في استقبالى مصطفى الخروبى الذي علمت في ما بعد انه عضو في مجلس الثورة . وحين تقدمت منه اقدم نفسي احتضنني وهو يبكي ويقول : " اني لا اصدق عينى " .

وتوجهنا معا الى القنصلية المصرية ، حيث راح يروي لي كل شيء عن الثورة . قال : " اننا كلنا مؤمنون بعبد الناصر " . وسألته عمن يكون قائد الثورة فقال : " ستراه الليلة قبل أن تعود . (كنت قد رتبت للعودة في صباح اليوم التالي) . انك لا تستطيع ان تتخيل مدى طهارته " . ثم سألته عن رتبته فقال : " ان رتبته اقل من رتبتي لانه تعرض للعقاب . كان نقيبا مثلي ، لكنه انزل الى رتبة ملازم اول".

وفي نحو الساعة الثانية صباحا جاء معمر القذافي الى القنصلية . و كانت الصدمة بالغة لنفسي حين رأيته ، فقد كان في مقتبل الشباب وراودني التفكير في انه ربما كانت في الأمر خدعة ، وان هذا الشاب لا يمكن ان يكون قائدا لثورة ناجحة . لكني غيرت رأيي لمجرد ان بدأ يتكلم لقد راح يتحدث بوضوح في عديد من الموضوعات ثم قال فجأة انه واخوانه الضباط يريدون وحدة مع مصر، وانهم مستعدون للوحدة ، واكد انه كان يتتبع كل ما يجري في العالم العربي ، وأنه يعرف ان عبد الناصر يبحث عن جبهة ثانية ضد اسرائيل . واضاف : " لكنه ينسى العمق . ان ليبيا هي العمق . ان لدينا مئات الأميال من الساحل على البحر الابيض المتوسط . لدينا المطارات .. ولدينا المال.. ولدينا كل شيء . قل للرئيس عبد الناصر اننا قمنا بهذه الثورة من اجله ، وانه يستطيع ان يأخذ منا كل ما نملك ويضيفه الى مصادر العالم العربي الأخرى لاستخدامه في المعركة ".

واخذتني الدهشة البالغة لهذا العرض . وحين عدت الى القاهرة وجدت في انتظاري رسالة في المطار تقول ان الرئيس يريد ان يراني على الفور. وكنت قد صحبت معي في الطائرة مصورا صحفيا لأني كنت اعرف عن عبد الناصر عادة دراسة جميع الصور التي يمكن ان تقع في يده لأي شخص سيتعامل معه. وقد اكدت للقذافي- ولم يكن يريد لأي من صورة ان تنشر- ان الصور التي ستلتقط له هي من اجل عبد الناصر فقط . وطلبت الى المصور ان يذهب لتحميض الصور وطبعها ، بينما توجهت انا الى منزل عبد الناصر.

وقال عبد الناصر وانا ادخل عليه : " ماذا وجدت؟ " .
قلت : " مشكلة " .
قال : " لماذا ؟ هل هم ضد مصر؟ " .
قلت: " ذلك ابعد ما يكون . المشكلة انهم ابرياء الى حد مذهل .. اطهارالى حد مخيف . انهم رجالك .. يريدون الوحدة معك " .

ولم تكن دهشة عبد الناصر لما قلت اقل من دهشتي لما سمعت . وجعلني استعيد المرة بعد المرة تفصيلات رحلتي واجتماعاتي مع القذافي ورفاقه . ماذا كانوا يرتدون ؟ كيف عامل الآخرون القذافي ؟ هل خرجت بانطباع ان القذافي يسيطر على القيادة بالفعل؟ وحين قلت ان القذافي لم يكن حالقا ذقنه، قال: " اجل .. أجل.. أنت على حق في ان تقول لي كل هذه التفصيلات " . لكني لما كنت لم اقض في بنغازي سوى ١٨ ساعة ، وقضيت ليلة بحالها وبعضاً من ساعات الصباح التالي بلا نوم ، فقد ظلت هناك اسئلة عدة وجهها الي عبد الناصر ولم يكن في استطاعتي ان اجيب عنها في تلك الساعة .

وفي اليوم التالي وردت برقية من بنغازي . وكان معي في الطائرة الى بنغازي ، ضابط اتصال عسكري ، وضابط اتصال سياسي من ضباط المخابرات . وقد ظل الاثنان في بنغازي وبعثا من هناك يقولان ان تحذيراً وصل من المانيا الغربية - وكانت بين ليبيا وحكومة بون علاقات وثيقة لأن المانيا كانت تحصل على كميات كبيرة من البترول الليبي- بأن الالمان يساعدون الاتراك على اعداد حملة

بحرية تستهدف اعادة الملك ادريس الى البلاد . وكان الملك يقضي اجازة في تركيا حين وقع الانقلاب، وكانت الفكرة ان من الممكن اعادته بالطريقة نفسها التي اعيد بها الامبراطور هيلاسلاسي في العام ١٩٦٠ حين كان خارج بلاده وحدث ضده الانقلاب الذي دبره ابنه بالتعاون مع الرأس امرو. وقد اثار ما تضمنته البرقية بعض القلق في نفس عبد الناصر لأنه كان في ذلك الوقت مهتما اشد الاهتمام بمسألة العمق اللازم للدفاع عن مصر، ولذا فقد كان من الأهمية القصوى ان يهيأ للثورة الليبية الوقت الكافي لتدعيم نفسها . وهكذا .. رأيت عبد الناصر يمسك سماعة التلفون بعدما انتهى من قراءة البرقية ويطلب الفريق فوزي ليقول له : " فوزي .. اريدك ان تهدىء الموقف على جبهة القناة (كان ذلك في وقت بلغت حرب الاستنزاف ذروتها) وتستعد للعمل في الغرب " . وتصورت ما ستكون عليه دهشة الفريق فوزي لهذا الأمر، لكن الحقيقة ان لواء مدرعا نقل في تلك الليلة الى مرسى مطروح كما ابحرت مدمرتان وبعض الغواصات من الاسكندرية الى هناك .

ولم يسفر مؤتمر المواجهة الذي عقد في القاهرة عن نتائج محددة ، وبدلاً من ان يوافق على التقرير الذي قدمه الفريق فوزي ، فانه قرر ان يعود كبار الضباط انفسهم الذين وضعوا التقرير الى الاجتماع في شهر مارس (آذار) التالي للا تفاق على الخطوط النهائية لخططهم . وكما كان من المتصور فان الموضوع الاول الذي شغل افكار الجميع عقب انفضاض المؤتمر كان : الثورة الليبية، وما ستنتهي اليه.

وقد كانت لدى الرئيس جعفر نميري آمال بشأن التعاون بين احدث ثورتين في العالم العربي، ولا سيما ان السودان كان يواجه مشاكل اقتصادية صعبة. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) قام نميري بأول زيارة له الى موسكو، ومر في طريق عودته منها بالقاهرة حيث ناقش نتائج رحلته. وكان من الواضح ان اجتماعاته بالزعماء السوفييت ناجحة للغاية ، فهم قد اظهروا اهتماما كبيرا بالثورة السودانية، واهتماما اكبر بالثورة الليبية.. من حيث ان ليبيا - بطبيعة الحال- جائزة دولية اهم ، نظراً لثروتها البترولية وموقعها الاستراتيجي . وقد حذر كوسيجين نميري من ان السودان سيتعرض لضغط شديد من جانب الغرب، لأن الغرب سيرفض ان يفقده . وسأله بريجنيف عن مدى ما حققه السودان من فائدة من القرض السابق الذي حصل عليه من السوفييت (قبل ان يستولي نميري على السلطة) . ورد نميري بأن بعض المصانع التي انشئت بأموال ذلك القرض اقيمت في مواقع خطأ ، ولا تعمل كما يجب . فقال بريجنيف : " ان واحدة من الصعوبات التي نواجهها هي ان بعض البلاد التي قدمنا لها العون انفقت المال في بناء ملاعب الكرة ، بينما كانت هناك اشياء اخرى هي بحاجة اشد اليها ". وقد بدا بريجنيف مهتما بوجه خاص بالتغلغل الصيني في افريقيا . وحين قال نميري ان السودان لم يتعرض لمثل هذا التغلغل هز بريجنيف رأسه وقال : " حسن جداً " .

وعلى رغم ان مؤتمر المواجهة لم يكن من وجهة نظر مصر، مؤتمرا منتجا ، الا ان الاسرائيليين ردوا على الثورة الليبية - التي اعتبروها بحق عاملاً مشجعا لمصر- بطريقتهم المعهودة . ففي يوم ٩ سبتمبر (ايلول) ، اي بعد انقضاء ستة ايام على انتهاء المؤتمر، قاموا بغارة على الزعفرانة - وهي موقع مصري على ساحل البحر الاحمر- احاطوها بقدر كبير من الدعاية ، وانزلوا فيها دبابات وسيارات برمائية عدة ، والتقطوا الكثير من الصور لما سموه بـ " غزو مصر" . وكان عبد الناصر، حين حدثت الغارة ، يشهد مناورات للجيش اجريت في الصحراء بالقرب من طريق القاهرة / السويس . وعندما تلقى نبأها طلب من الفريق فوزي – وكان معه – تفصيلات عنها ، لكن الفريق فوزي قال ان كل ما علمه عنها كان مصدره وكالات الانباء . وترك عبد الناصر المناورات وعاد الى القاهرة .

واتصل بي عبد الناصر تلفونيا ، وطلب مني ان أرسل له جميع تقارير وكالات الانباء ، ثم اتصل بعدد من القيادات في الجيش والمخابرات ، لكنه لم يكن هناك من استطاع ان يقول له شيئاً عن مكان

الاسرائيليين بالضبط او عما يفعلونه ، بل انه لم يكن هناك من قدم اليه اي تأكيد ان الغارة قد حدثت. وقد غضب عبد الناصر أشد الغضب ، وقال لي بلهجة مرة في اخر اتصال تلفوني له بي في ما بين الساعة السادسة والساعة السابعة مساء ان من الواضح ان بعض الناس لا يزالون يتصرفون " بأسلوب العام ١٩٦٧" ...

وفي ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي استدعيت الى منزل الرئيس . ووجدت هناك كلاً من انور السادات وشعراوي جمعة والفريق فوزي وسامي شرف وامين هويدي . وقال لي السادات ان عبد الناصر سيسافر في اجازة لمدة شهر، وسوف تتولى تصريف العاجل من الأمور في فترة غيابه لجنة يرئسها السادات نفسه، وتضمنا نحن الخمسة كأعضاء . فقلت : " لست افهم شيئا مما يحدث؟.. هل سيسافر الرئيس الى الخارج ؟ .. لقد كان يتحدث الي بالامس ولم يذكر شيئاً من ذلك ". ورد السادات قائلاً : " كلا .. انه لن يسافر الى الخارج ، لكنه سيقيم خارج القاهرة ". لكنني لم افهم ما يعنيه وقلت : "آسف.. فلا يمكنني الموافقة على شيء قبل ان ارى الرئيس " . وقال احدهم : " انه يشكو من الانفلونزا" . فقلت : " ما هذا الذي تقول؟ وأي أنفلونزا هذه التي تحتاج الى شهر؟ .. اني، من ناحيتي، اخشى اني لا استطيع الاشتراك في اي شيء الى ان اعرف على وجه الدقة اين اقف ، واين سيكون الرئيس . الأمر بالنسبة اليكم مختلف ، فأنتم جميعا اعضاء في الحكومة : شعراوي وزير الداخلية، وسامي سكرتير شؤون الرياسة ، والفريق فوزي قائد الجيش ، وامين هويدي مدير المخابرات . اما انا فلا اشغل منصبا رسميا . فكيف يمكن ان ادخل في الصورة ؟ " . وقال السادات : " لاتكن عنيداً " .

وكنا مجتمعين في مكتب سامي شرف في مبنى يطل على الطريق المؤدي الى منزل الرئيس مباشرة. وكان الوقت ليلاً ، والضوء يبدو واضحا في غرفة عبد الناصر. وبعد برهة قال السادات : " طيب.. سأذهب لارى ما يمكن عمله ". وعاد بعد ربع ساعة ليقول لي : " ان الرئيس سيراك، وسيبلغك بنفسه ما يريد منك ان تفعله ". وهكذا ذهبت مع السادات عبر الشارع الى منزل عبد الناصر، وصعدنا الى الطابق الثاني، حيث كان عبد الناصر يجلس على مقعد يأكل طعامه المفضل من الجبن الأبيض . وبدا شاحبا، ذقنه غير محلوقة على غير عادته تماما. وبدأت قائلاً : " انني لست افهم شيئا مما يحدث الآن ". فقال : " انفلونزا.. واعتقد انه لابد لي من الراحة ، فالأطباء كلهم يقولون انه لا بد ان استريح وان ابقى في السرير" . قلت : " ولكن لماذا تريدني ان انضم الى هذه اللجنة ؟ " . فقال : " انت تعرف الخطوط الاساسية لتفكيري . ان الاخرين كلهم يشغلون مناصب رسمية ، اما انت فتعرف الطريقة التي يعمل بها عقلي ، ولذا فاني اريدك في هذه اللجنة ". قلت : لكن هذا أمر مختلف جداً . فمناقشة المسائل معك شيء ، وبحثها مع الآخرين شيء مختلف تماما " . قال : " افعل ذلك من أجلي " . قلت : " من اجلك سأفعله عن طيب خاطر " .

وإذ كنا قد بدأنا نستعد للخروج قلت لعبد الناصر: " هناك شيء آخر لا تريد ان تقوله؟ " وقال : " انها ازمة قلبية" . قلت : " أزمة قلبية ؟ " . قال : " يقولون انها ليست خطيرة " . وحين خرجنا من الغرفة سألت السادات عمن عاده من الأطباء ، فذكرهم لي . وسألت : " اليس من الواجب علينا ان نأتي بأخصائي اجنبي يكشف عليه؟ " . فقال السادات ان الصعوبة هي اننا اذا احضرنا اي اخصائي من امريكا او من بريطانيا فان الاسرائيليين سيعرفون على الفور، وسيكون الخبر في الصحف كلها . قلت : "ولم لا نحضر اخصائيا من الاتحاد السوفييتي " . وقال السادات : " انها فكرة طيبة " . واتصل بالسفير السوفييتي .

وان هي الا فترة قصيرة حتى كان البروفسور شازوف يركب طائرة خاصة حملته من موسكو الى القاهرة . وبعد ان كشف على عبد الناصر كان قراره : لا سخالطوبو (كان عبد الناصر بدأ يستعد للسفر الى سخالطوبو لإجراء المرحلة الثانية من العلاج) لأن قلبه لن يحتمل العلاج بالمياه المعدنية. وبدلاً من ذلك فلا بد من ان يتبع نظاما جديدا لحياته شديد القسوة . عليه ان يبقى في الفراش ستة اسابيع على

الأقل ، لا يقابل خلا لها احدا ويتوقف عن العمل تماماً ، هذه هي النصيحة الأولى، والنصيحة الثانية ان عليه بالطبع ان يواصل التوقف عن التدخين تماماً ، وكان الدكتور شازوف ايضا نصحه بالاقلاع عنه عند اكتشاف مرضه بتصلب الشرايين العام ١٩٦٨ فى موسكو . ونظر عبد الناصر الى البروفسور وقال : " انت تحرمني من شيئين .. احدهما احبه والآخر لا استطيع ان ابعده عني . العمل حياتي .. والتوتر قدر مفروض علي ..." . وقد اتبع عبد الناصر هذا " الريجيم " بدقة ثلاثة ايام ، لكنه بعدها راح يمسك بسماعة التلفون ويصدر التعليمات لمن يتحدث اليهم . وعاد الى اتصاله بكل شؤون الدولة التي كان يمارسها . وقد أعفاني ذلك من مهمة لم اكن متحمسا لها ، لأني لم اجد داعيا بعد ذلك لحضور اي اجتماع من اجتماعات اللجنة التي كلفها تصريف الأمور في غيابه .

وقد استمر الضغط على اشده في بعض الدوائر لعقد مؤتمر قمة للدول العربية كلها رغم ان الجزائر وسوريا كانتا ضد الفكرة . بل ان الكويت والسعودية كانتا ضدها ايضاً ، وقد بعث الملك فيصل برسالة الى القاهرة يقول فيها انه مستعد فقط لحضور مثل هذا المؤتمر " بشرط ان تعلن الجمهورية العربية المتحدة بصراحة انها تخلت عن كل الجهود الرامية الى تحقيق حل سلمي ، وتوقف تعاونها مع مهمة الدكتور يارنج ، وتسحب موافقتها على القرار ٢٤٢ ، وتؤكد استعدادها الفوري لاعلان الجهاد " . وكان ذلك أكثر مما يحتمله الموقف !

الجزء الخامس
شراء قنبلة

بعد ذلك بفترة قصيرة قام معمر القذافي بأول زيارة له للقاهرة ، واجتمع مرات عدة بعبد الناصر ، وكان من الواضح أن جزءاً كبيراً من معلوماته عن الشؤون الجارية مصدره دراسة الصحف ، ولكنه كان تواقاً الى أن يتعلم . وكان هناك أمران مميزان له : اولهما – اعتماده على توجيه عبد الناصر في فهم السياسات العربية واعتماده على خبرة الثورة المصرية كنموذج تحتذيه ليبيا . وثانيهما – البساطة المتناهية التي ينظر بها الى مشاكل الحرب والسلام .

وفي إحدى المرات التي كان فيها عبد الناصر يشرح له الفرق بين قوة العرب وقوة اسرائيل من حيث الدبابات والطائرات وغيرها . تحمس القذافي يقول : " لا .. لا .. لابد لنا من أن ندخل مباشرة في حرب شاملة نبيد فيها اسرائيل " . ورد عليه عبد الناصر – وهو بادي الصبر – ان ذلك مستحيل ، لأن الموقف الدولي لن يسمح لنا بأن نفعله ، ولانه لا الروس ولا الامريكيين يمكن ان يسمحوا بقيام موقف يمكن ان تترتب عليه حرب نووية .

وسأل القذافي : " ألدى الاسرائيليين قنابل نووية ؟ " . ورد عبد الناصر بأن ذلك احتمال قوي . فعاد يسأل : " وهل لدينا نحن قنابل نووية ؟ " ورد عبد الناصر : " كلا .. ليس لدينا شيء منها " .

وبعد ذلك بنحو شهرين أو ثلاثة شهور قام الرائد عبد السلام جلود الرجل الثاني في ليبيا بزيارة مفاجئة لمصر ليقابل عبد الناصر ، وطلب ان تحاط زيارته بالسرية ، وقال ان الغرض الوحيد منها هو استشارة الرئيس . وسأله عبد الناصر عما يريد أن يستشيره فيه فقال جلود : " اننا نعتزم شراء قنبلة نووية " . وسأله عبد الناصر من أين سيشترونها ، فرد جلود بأنهم يعلمون ان الامريكيين والروس غير مستعدين لبيعها ، لكن الصينيين قد يكونون مستعدين للبيع . وقال عبد الناصر ان مدى علمه ان القنابل النووية لم تكن ابداً سلعة للبيع . ورد جلود قائلاً : " لا .. نحن لانريد قنبلة كبيرة ، انما نريد قنبلة تكتيكية . وقد اجرينا اتصالاً بالصينيين ، وقلنا لهم اننا نريد ان يذهب واحد منا في زيارة لبلادهم ، فردوا بأنهم يرحبون بنا . وهكذا فإني سأسافر " .

وسافر جلود متنكراً .. فقد غير جواز سفره بجواز سفر مصري ، وقام برحلته الى بكين عن طريق باكستان والهند . ولم يكن الصينيون يعرفون الغرض من الزيارة ، لكنهم رتبوا له اجتماعاً مع شو ان لاي شرح فيه نائب رئيس مجلس الثورة الليبي انه جاء الى بكين لمسألة مهمة جداً . وقال " ان الصين فخر لجميع بلدان آسيا . لقد فعلتم الكثير لمساعدة الدول النامية ، واثبتم للعالم انكم لا تقلون قوة عن الغرب . لذلك فقد جئنا اليكم من ليبيا نطلب عونكم . ونحن لا نريد أن نكون عبئاً عليكم ، ونعرف أن هذه الاشياء تكلف الكثير من المال . اننا نريد شراء قنبلة نووية " . وكان شو ان لاي مهذباً جداً ، وراح يشرح لزائره بكل اللباقة والادب اللذين تشتهر بهما الصين ان القنابل النووية ليست للبيع ، وانه وان كان مما يسعد الصين بطبيعة الحال ان تساعد في عمليات الابحاث ، الا ان انتاج الاسلحة النووية لابد أن يتم بأيدي الليبيين أنفسهم ، ولا بد لكل شعب من ان يتدرب على الاعتماد على نفسه ... الخ . وهكذا عاد جلود خالي الوفاض .

الجزء السادس
مؤتمر القمة في الرباط

في نهاية الأمر، تقرر ان تمضي الاستعدادات قدما لعقد مؤتمر قمة عربي ، وتمت الموافقة على دعوة الملك الحسن ، ملك المغرب ، الى عقد المؤتمر في الرباط في شهر ديسمبر (كانون الأول) ودعا عبد الناصر الملك فيصل الى ان يتوقف في القاهرة وهو في طريقه الى الرباط ، لانه كان يشعر بأن نجاح المؤتمر او فشله يتوقفان الى حد كبير على اتفاق مصر والمملكة العربية السعودية على ارض مشتركة تقفان عليها .

كانت المملكة العربية السعودية حساسة بالنسبة الى العلاقات الوثيقة التي تربط مصر بالاتحاد السوفييتي ، وكانت مصر بحاجة الى الدعم المالي السعودي ولا سيما من حيث دوره في سرعة شراء السلاح . وحين تم اللقاء بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل ظهرت امامهما مشكلة جديدة . ذلك انه كانت حدثت في السعودية محاولة انقلا ب اجهضت واعقبها رواج انباء من مصادر مختلفة عن اعدام عدد من الضباط . وترددت يومها قصة تقول ان الضباط الثائرين على علاقة بمصر ، وذكر الملك فيصل ان سامى شرف ، بالتحديد ، متصل بالمؤامرة . ورد عبد الناصر بانه اذا ثبت ان هناك مصريا حرض احداً في السعودية على قلب نظام الحكم ، فانه على استعداد لارساله الى هناك لمحاكمته ، وقال : " ليس مهما من يكون ذلك الشخص !.. سواء كان من اعواني المقربين او حتى سكرتيري الخاص . تستطيع ان تحاكمه . المهم انى اريد ان تكون العلاقات بين بلدينا طيبة " . وقال الملك فيصل : " أطال الله عمرك .. انا لا أعرف النتيجة النهائية التي توصل اليها التحقيق عندنا ، ولكن يقينا ان بعض المتآمرين ذكروا اسم سامي شرف . ويبدو انهم شيوعيون . والحمد لله انه ليس هناك شيوعيون في السعودية العربية . أن بلدنا اسلامي ، وشعبنا يحيا ويموت طبقا لمعتقداته الاسلامية ، وليس لدينا اى اتصال مع العالم الشيوعي سواء كان ديبلوماسيا او غيره . ولكن مما يؤسف له ان بعض الشبان من ابناء بلادنا الذين يسافرون الى الخارج لتلقي العلم يعودون بافكار شيوعية . وأسوأ مركز الآن لنشر الشيوعية هو جامعة بيروت الأميركية " . وقال عبد الناصر ان المصريين الذين يلتحقون بجامعة بيروت الأميركية او بجامعة القاهرة لا يتحولون الى شيوعيين . فقال الملك : " لا .. لا . الق مجرد نظرة على كل ما حدث في العالم العربي وعلى نوعية الناس الذين تخرجوا من جامعة بيروت الأميركية . لقد كانت

باريس بعد الحرب العالمية الأولى هي الأرض الخصبة الرئيسية للشيوعيين ، ومنها جاء رجال كصلاح البيطار وأكرم الحوراني وميشيل عفلق . أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد انتقل مركز السم الى جامعة بيروت الأميركية " . وقد حاول عبد الناصر ان يعود الى موضوع الاتهام الموجه الى سامي شرف ، وسأل الملك : " الديكم دليل على اشتراكه؟ .. اني اعترف بأننا ربما كنا نعمل ضدكم قبل العام ١٩٦٧، لكني بعد مؤتمر الخرطوم اصدرت اوامر بوقف جميع هذه العمليات " . وذكر عبد الناصر للملك ان من بين مشاكله ان بعض الناس خارج مصر يزعمون في احيان كثيرة انهم يعملون باسمه، من دون ان تكون لديهم أي سلطة لأن يفعلوا ذلك . وقال الملك : " ان من مشاكلك ايضا، رعاك الله واطال عمرك ، ان هناك اعتقادا ان كل ما ينشر في " الأهرام " يأتي منك مباشرة " . وقال عبد الناصر : " لقد تكلمت مع هيكل امس ، وقلت له انه يخلق لنا مشاكل كثيرة فى المملكة العربية السعودية ، فكان رده : وما الذي يمكن ان افعله ... انه يريد جريدة حرة تعبر عن الآراء والاتجاهات بصراحة " . واضاف عبد الناصر: " اني انا نفسي لا اتدخل في ما ينشرد " الاهرام " .. أن هيكل صديقي وهو يعرف تفكيري ، لكني لا افرض عليه ما يكتب . وهو شديد العناد في هذه الناحية " .

وبعد ذلك حول عبد الناصر دفة الحديث الى المسائل المالية . قال ان مصر بحاجة الى مزيد من العون. وقال الملك فيصل ان المملكة العربية السعودية تمر بفترة عصيبة جدا ، وان احتياطها من العملات الاجنبية يوشك على النفاد وقد تضطر في القريب العاجل الى مواجهة احد اختيارين : اما ان تقترض من صندوق النقد الدولي، واما ان توقف معوناتها للبلاد الصديقة . وقال ان اللوم في هذه المصاعب يقع على اعمال التخريب في خط " التابلاين " التي قام بها " اصدقاؤكم من جماعات المقاومة من امثال جورج حبش والباقون الذين يعملون بطريقة لا افهمها ، حتى لاكاد اشك احيانا في تعاونهم مع الصهاينة ، وانهم يحاولون افلاسنا " .

وهكذا سافر عبد الناصر والملك فيصل الى الرباط من دون ان يتوصلا الى اساس حقيقي للتفاهم بعضهما مع بعض . وقد اخذ هذا المؤتمر شكل اغرب مؤتمرات القمة التي عقدت من قبل . كان مركز الاهتمام فيه - بطبيعة الحال - هو معمر القذافي ، لانها كانت المرة الأولى التي يظهر فيها على المسرح الدولي . وكانت رئاسة المؤتمر للملك الحسن . وفي جلسة الافتتاح تقدم رئيس الديوان من الملك وقبل يده ، ثم ابلغه ان اجراءات الافتتاح جاهزة . وكان الملوك والرؤساء كلهم ينتظرون في الغرفة المجاورة . وعندما شاهد القذافي ما فعله رئيس الديوان كسا الذعر وجهه . وقال : "هل ترون؟.. ذلك الرجل- مشيرا الى رئيس الديوان – يقبل يد الحسن ؟ اما زال تقبيل اليد معمولا به في العالم العربي؟ وهل ما زلنا متمسكين بهذه المخلفات من الاقطاع والعبودية ؟ .. كيف يمكننا ابدا ان نحرر فلسطين اذا كنا لا نزال نقبل الايدي " . ونجم عن هذه الغضبة حرج شديد ، حاول عبد الناصر بعده ان يهدىء القذافي .

وفي الجلسة الاولى للمؤتمر استمع الملوك ورؤساء الدول مرة اخرى الى تقرير من الفريق فوزي عن الا ستعدادات للمعركة . ومرة اخرى تدخل القذافي مقاطعا وتساءل : " أمن الحكمة في شيء ان تقال كل هذه الاسرار امام كل الحاضرين هنا ؟ ان من المؤكد ان من بينهم من سينقلها الى الاسرائيليين " . ومع مضي المؤتمر في اجراءاته ازداد عدد من ارتفعت حواجبهم دهشة بعدما رأوا القذافي يوجه الخطاب الى رئيس المؤتمر باسم : " الأخ الحسن " ، والى الملك فيصل باسم : " الأخ فيصل " . وكان عبد الناصر يدعو الملك باسم : " الأخ الملك فيصل " ، لكن القذافي تمسك باسم : " الأخ فيصل " ، وقد وجه الملك فيصل الى الرئيس عبد الناصر نظرة ذات مغزى ، كأنه يقول له : " ما الذي ستفعله بشأن صديقك؟ "

وفي احد اجتماعات المؤتمر- وكانت هناك شبه ازمة – خرج القذافي الى احد الممرات التي تؤدي الى قاعة الاجتماعات وجلس بجانبي حيث كنت اجلس . وفي تلك الأثناء مر امامنا شخص حياني فرددت تحيته. وسألني القذافي : " من هذا؟ " فقلت انه الجنرال اوفقير.. الا تعرفه ؟ " . وانفجر القذافي : "

أوفقير ؟ !.. انه الرجل الذي قتل بن بركة " [**بن بركة هو الزعيم المغربي الذي اختفى في باريس العام ١٩٦٥ ، وأدين الجنرال أوفقير من قبل احدى المحاكم الفرنسية بالتآمر في عملية اختفائه**] . ووافقت على ان اوفقير كان متهماً بالاشتراك في عملية اغتياله . وقال : " كلا .. لقد قتله.. انه قاتل.. فكيف يسمح له بان يكون هنا بيننا ؟ لا بد ان يصدر الأمر الى البوليس بالقبض عليه " . وقلت ان ذلك امر صعب ، لأن اوفقير نفسه هو مدير البوليس . وعندها مر امامنا شخص آخر اعرفه القذافي : " هل تعرفه ؟ انه الرجل المسؤول عن تلك الصفقة الكبيرة الخاصة مع احدى شركات السلاح واحدى شركات البترول ، والتي تقاضى فيها عمولة ضخمة . لعلك تذكر ولا شك تلك الفضيحة ؟ . ولم يكد القذافي يفيق من هذه الصدمة الجديدة حتى مر شخص ثالث من أمامنا ، وقلت للقذافي انه مساعد اوفقير. ولم اكد اتم كلامي حتى رأيته يتركني ويتجه مباشرة لمقابلة عبد الناصر حيث قال له : " اننا، في هذا المؤتمر، محاطون بلصوص ومتآمرين وجواسيس . ولا يمكن اجتماعا كهذا ان يسفر عن اي خير ومن الأفضل لنا الأ نكون هنا. وسأعود انا الى بلادي غدا " .

وسمع الملك الحسن بتهديد القذافي بالانسحاب من المؤتمر، فكتب ورقة صغيرة مررها الى عبد الناصر قال فيها : " فخامة الأخ .. لقد اصدر رئيس ليبيا اوامره بان تكون طائرته مستعدة للسفر فورا، وهو ينوي السفر بالفعل . ان سفره المفاجيء هكذا قبل ان ينتهي المؤتمر من اعماله سيفسر بما يعني ان المؤتمر يواجه ازمة . أرجوك ان تبذل كل ما تستطيع لاقناع الرئيس الليبي بالبقاء حتى نهاية المؤتمر". وقبل عبد الناصر الرجاء.. وبقي القذافي حتى انتهى المؤتمر.

وطلب القذافي من عبد الناصر ان يتوقف في ليبيا في طريق عودته الى القاهرة، ووافق عبد الناصر، واستقبلته الجماهير في كل مكان اروع استقبال، وتلقى على اثر ذلك رسالة من بريجنيف يقول فيها: (القد سمع البروفسور شازوف النبأ انك قضيت خمس ساعات في سيارة جيب اعقبتها بالقاء خطاب استغرق ساعة كاملة. وذلك مناقض تماما لتعليماته، وخطر بالغ على صحتك ".

وكان الرئيس نميري مع عبد الناصر حين جاء الى ليبيا، ووقع الرؤساء الثلا ثة ما سمي " ميثاق طرابلس " كتصور لوحدة بين دولهم الثلاث . وكان الميثاق يمثل ، الى حد ما، نصف المعادلة العسكرية التي كان عبد الناصر يحاول حلها خلال السنتين الماضيتين ، وهي : كيف يزن بين ميزات خلق جبهة ثانية نشطة وميزات العمق اللا زم . ان ليبيا والسودان تقدمان الى مصر ميزة العمق ، والاتحاد بين الدول الثلاث يدعمه ، فضلا عن ميزات اخرى من بينها مثلاً ما اعرب عنه القذافي من استعداده لشراء الاسلحة السوفييتية نيابة عن مصر.

وحدث بالفعل بعد قيام الثورة الليبية بشهر- وكانت العلا قات بينها وبين مصر عندئذ لا تزال موضع حدس بالنسبة الى العالم - ان عرض الامريكيون على القذافي ان يبيعوه طائرات " الفانتوم "، كما عرض عليه الفرنسيون ان يبيعوه طائرات " الميراج " . لكن عبد الناصر اوفدني الى القذافي برسالة تقول انه اذا استطاع ان يحصل على "الفانتوم " فانه يكون قد حقق عملاً رائعا ، وان كان الشك يراود عبد الناصر بالنسبة الى حقيقة استعداد الامريكيين لتزويده بها . كذلك ، فان الرسالة تضمنت ان يسعى القذافي للحصول على " الميراج " من فرنسا ، خصوصا بعد ان تبين ان الصفقة مع العراق فشلت . اما السودانيون فقد كانوا في مركز يمكنهم من ان يقدموا الى مصر التسهيلات اللازمة في مطاراتهم الشمالية البعيدة عن مدى القاذفات الاسرائيلية .

وكان هناك اعتبار آخر جعل عبد الناصر يوجه مزيدا من الاهتمام الى فكرة العمق، هو عدم التجانس بين بعض حلفائنا المهمين في الجبهة الثانية . فالصراع بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية كان يزداد حدة ، وكانت مصر تحتفظ بعلا قات طيبة مع المقاومة ، وحين اغارت الطائرات الاسرائيلية على قواعد المقاومة طلب زعماؤها من مصر ان تمدهم بمدافع مضادة للطائرات . وصحبت انا اثنين من

هؤلاء الزعماء ، هما " ابو اللطف " و" ابو اياد " لمقابلة السفير السوفييتي . وبعد المقابلة بيومين تلقينا رسالة بان السوفييت على استعداد لاعطاء المقاومة عشرة مدافع مضادة للطائرات . لكن السؤال كان : كيف ستسلم؟ واقترحت المقاومة- كوسيلة للاسراع في الحصول عليها- ان تأخذ المدافع العشرة من مخازن الجيش المصري، على ان تعوض بالمدافع الجديدة بعد ذلك . ووافق عبد الناصر على الاقتراح، واصدر تعليماته بتنفيذه .

وكانت هناك معونات اخرى للمقاومة متوقعة بسرعة . فحين كان ياسر عرفات مع عبد الناصر في موسكو اجتمع بمازاروف وبحث معه في مسألة امدادات السلاح . ولم يتعهد مازاروف يومها بشيء عاجل، ولكن بعد نحو اسبوعين او ثلاث من عودتنا من موسكو تسلم عبد الناصر من السفير السوفييتي سيرجي فينوجرادوف رسالة تضمنت ان اللجنة المركزية للاتحاد السوفييتي قد وافقت- بناء على توصية من عبد الناصر- على اعطاء حركة المقاومة الفلسطينية سلاحا بما قيمته ٥٠٠ الف دولار .

وبعد عودة عبد الناصر الى القاهرة من طرابلس ، بدأ في موقف بعض وزراء الرئيس نميري ما يدل عنى برود تجاه ما يحمله ميثاق طرابلس من معان ، وكانت النتيجة ان تضاءلت الفكرة الاصلية لوحدة بين الدول الثلاث الى اتحاد ضعيف . ومع ذلك ، فلو ان الحياة كانت قدرت له لكان خطوة في الاتجاه الصحيح .

وطوال ذلك الوقت، كان الاسرائيليون يعجلون في برنامجهم لتعريض عبد الناصر وحكومته والشعب المصري لأقصى قدر من الاذلال . وكانت الغاية من ذلك اظهار مصر في مظهر العجز، وبالتالي تحقيق انهيار النظام وفك الوحدة المقترحة مع ليبيا والسودان . ففي اثناء انعقاد مؤتمر القمة في الرباط نزلوا على شاطىء البحر الأحمر وحملوا في عودتهم محطة رادار كاملة. وبعد ذلك قامت طائراتهم بغارات متعددة في عمق مصر شملت ابو زعبل ومدرسة بحر البقر، ونجم عنها خسارة كبيرة في الارواح . وكانت مصر في ذلك الوقت تحاول ان تقيم شبكة للصواريخ على شريط عرضه ٣٠ كيلومترا غربي قناة السويس ، حيث تتمركز القوات المصرية، وحيث كان قادة الجيش مقتنعين بأن مصير الشرق الاوسط كله سيتحدد هناك . وكان المصريون يعملون في تلك المواقع تحت وابل من القنابل الاسرائيلية . ولا شك اننا مهما اثنينا على اولئك المهندسين والعمال المصريين المدنيين الذين كانوا يعملون هناك فاننا لن نعطييم حقهم . لقد كانوا يعملون بتعاون وثيق مع الجيش وتحت اشرافه. وكانوا يتعرضون يوميا لغارات العدو الوحشية، وقتل منهم ما لا يقل عن ٤ آلاف شخص . وقد بذلوا في الفترة ، منذ نهاية العام ١٩٦٩ حتى منتصف ١٩٧٠حين تم تركيب الصواريخ السوفييتية الجديدة، جهدا يفوق طاقة البشر ضد عوامل غير متكافئة . وفي رأيي أن هذه كانت انبل ساعة من ساعات عمل الرجل المصري العادي .

تلك كانت الظروف التي قرر فيها عبد الناصر ان يقوم بزيارته السرية الى موسكو لكي يبحث مع الزعماء السوفييت مسألة الدفاع الجوي كله عن مصر.

الجزء السابع
ازمة في موسكو

كان عبدالناصر مريضا.. وكانما لا يكفيه ما يشكو منه من امراض اخرى فهاجمته حمى الانفلونزا... وحذروه من جو موسكو الشديد البرد في هذا الوقت من السنة. لكنه مع ذلك احس بانه لا بد ان يذهب . وهكذا ركبنا في الصباح المبكر من يوم الخميس ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٠ طائرة سوفييتية خاصة كانت تنتظر في المنطقة العسكرية من مطار القاهرة . (كانت الرحلة سرية) .

وكان هناك جو من الوجوم يحيط بهذه الطائرة الضخمة التي لم يكن عليها سوى بضعة اشخاص قلائل.. ملاحوها في المقدمة، واربعة او خمسة من الحرس، واثنان من الاطباء . واضافة الى عبد الناصر، فلم يكن فيها مع هؤلاء سوى الفريق فوزي وانا واثنين من الروس هما سيرجي فينوجرادوف، السفير السوفييتي في القاهرة ، والجنرال كايتشكين الذي خلف الجنرال لاشينكوف كرئيس لفريق الخبراء العسكريين السوفييت .

ووصلنا الى مطار موسكو بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة صباحا ، وتوقفت بنا الطائرة في نهاية مدرج الطائرات ، وحين نزلنا منها وجدنا بودجورني وكوسيجين في انتظارنا ومعهما حارس شرف واحد لتحيتنا. وحملنا، كالعادة ، اسطول من السيارات السوداء المسدلة الستائر الى الفيلا الرقم ١ على تلال لينين، وهي احدى الفيلات المخصصة للزوار الرسميين . ويقع قرب الفيلا "استاد" رياضي يضم مركزا صحيا كثيرا ما يستخدمه المسؤولون من رجال الحكومة، وفيه غرف للتدليك والتمرينات الرياضية وحمام للسباحة الخ ... اضافة الى قاعة استقبال كبيرة. ولما كانت المسافة بين الفيلا و "الاستاد" قصيرة فقد تقرر ان تجري المباحثات هناك .

وسأل بودجورني وكوسيجين عما اذا كنا متعبين ونفضل ان نستريح اليوم و نبدأ المحادثات غدا ، فرد عبد الناصر بأند يفضل ان نبدأ العمل على الفور. وعليه ، تقرر ان تعقد الجلسة الاولى بعد ظهر اليوم نفسه.

وافتتح عبد الناصر الجلسة بشرح للأسباب التي دفعته الى المجيء الى موسكو، وقال ان مستقبل الشرق الاوسط كله سيتقرر في شريط من الأرض يبلغ عرضه نحو ٣٠ كيلومترا على جانبي قناة السويس. واوضح ان غارات العمق الاسرائيلية وغارات الطيران المنخفض داخل مصر تستهدفان في تصوره تحقيق غرضين : " اولهما- ان توقفا المحاولات التي تبذلها مصر لبناء جدار للصواريخ يصد اي هجوم عبر القناة . والثاني - ان تحطما الروح المعنوية في الجبهة الداخلية . وقد فشلت اسرائيل في اجبار مصر على الاستسلام في العام ١٩٦٧، لكنها تبدو مصممه على محاولة ذلك مرة اخرى .

وقال عبد الناصر ان مصر كلها تشعر بأنها من دون حماية ... كأنها عارية. وان مئات العمال من المدنيين ومثلهم من العسكريين قد قتلوا . وذكر انه كان دائما عند اعتقاده انه لا بد من وسيلة تكفل لمصر القدرة الكفية امام التفوق الاسرائيلي في الجو، ومثل هذه الوسيلة لا يمكن ان تتحقق في المستقبل القريب الا بواسطة الدفاع الجوي . وكان عبد الناصر يتكلم بحزم ، لكن التوتر كان باديا عليه .

وبدأ بريجنيف يدافع عن صواريخ " سام ٢" التي كانت القوات المصرية قد زودت بها من قبل . ورد عبد الناصر بأنه ليس لديه ما يعترض به على هذه الصواريخ الا من حيث انها غير فعالة ضد الطائرات التي تغير على ارتفاع يقل عن ٥٠٠ متر ، وتقل فاعليتها اكثر ضد الطائرات التي تغير على ارتفاع يراوح بين ٥٠٠ متر و ١٠٠٠ متر . وقال ان الفنيين السوفييت الموجودين في مصر شهود على ذلك ، وان ما يريده هو ان يكون قادرا على حماية القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المناطق الحيوية، اضافة الى جبهة القناة . وركز على اهمية الاسكندرية بوجه خاص باعتبارها اصبحت- بعد توقف العمل في بور سعيد وبعدما اغلق البحر الاحمر تماما- ميناء مصر الوحيد الذي يستقبل كل عمليات النقل البحري . وقال انها اذا تعرضت للضرب من جانب الاسرائيليين ، فان مصر كلها تصبح تحت الحصار.

واستمرت المناقشات.. حامية في بعض الفترات ، وكان باديا انها قد تنتهي الى ازمة مستحكمة . لكن هذا الخطر تبدد عندما اعترف بريجنيف بأن صواريخ " سام ٣ " هي التي يمكن ان تسد حاجة مصر

بالفعل ، وان السوفييت مستعدون لتزويد مصر بها . وقال بريجنيف : " ان صديقنا عبد الناصر يحصل دائما على ما يريد " .

وبعد هذا تحولت المناقشة الى العدد المطلوب من " سام ٣ " واتفق على تأجيل المناقشة الى اليوم التالي حتى تتاح الفرصة للفريق فوزي والماريشال جريتشكو للاجتماع معا وتحديد المناطق التي تتطلب الدفاع عنها . وهكذا تركنا القائدين ومعهما الجنرال كايتشكين وعدد اخر من الخبراء يواصلون مناقشاتهم .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي حضر الفريق فوزي الى غرفة نوم عبد الناصر ليطلعه على نتائج المناقشات. وكان احضر معه الى موسكو قائمة بالمناطق المطلوب الدفاع عنها، وكانت تشمل- اضافة الى جبهة القناة - مدن القاهرة والاسكندرية وأسوان ، والمناطق الصناعية مثل المحلة الكبرى وكفر الدوار وشبين الكوم وشبرا الخيمة وحلوان . وكان من الواضح ان الرجال المطلوبين لتشغيل كل هذه المناطق غير موجودين في مصر . وقد سأل عبد الناصر الفريق فوزي عما اذا كان في الامكان تحويل عدد من الرجال الذين يعملون على صواريخ " سام ٢" للاستفادة بهم في المناطق الجديدة ، لكن الظاهر انه كانت هناك فكرة جديدة بدأت تختمر في ذهنه.

وفي الساعة العاشرة صباحا اجتمع الوفدان بكامل اعضائهما مرة أخرى . وبدأ بريجنيف الاجتماع بقوله ان القرار الذي تم الوصول اليه في اليوم السابق يشكل صعوبات كثيرة . فالمناطق التي تريد مصر الدفاع عنها واسعة جدا - وكان من الواضح ان جريتشكو اطلع بريجنيف على نتائج المناقشات كما اطلع الفريق فوزي عبد الناصر عليها ، وبدا لاول مرة ان بريجنيف اصبح يدرك المدى الحقيقي لاحتياجات مصر. ورد عبد الناصر بان لدى مصر رجالا مدربين على استخدام صواريخ " سام ٢ " وانه يقترح تحويلهم الى العمل على صواريخ " سام ٣ " ، ولكن قيل له ان ذلك يتطلب فترة لا تقل عن ستة اشهر لكي يتمكن من يشغلون صواريخ " سام ٢ " من تشغيل صواريخ " سام ٣ " وان من الأفضل ان يتم تدريبهم في الاتحاد السوفييتي . وبدا عندئذ كأنما ستكون هناك فجوة مدتها ستة اشهر تظل مصر خلالها معرضة للغارات على ارتفاع منخفض من جانب الطائرات الاسرائيلية . بل ان الموقف سيكون خلالها اسوأ مما كان عليه في اي وقت مضى، لأن بعض الرجال الذين يعملون على صواريخ "سام ٢" سيكونون عندئذ في الاتحاد السوفييتي يتلقون التدريب ، وستكون مصر عندئذ معرضة للغارات الاسرائيلية على ارتفاعات منخفضة وعالية على السواء .

وهنا القى عبد الناصر بقنبلته. قال ان الطريقة الوحيدة لسد هذه الثغرة هي ان يزونا السوفييت بالرجال اللازمين . لكن بريجنيف والباقين لم يكونوا مستعدين للموافقة على هذا الطلب . وقال عبد الناصر انه يدرك ان ما يطلبه امر من الصعب عليهم ان يستجيبوا له ، لكنه ، في رأيه ، هو الحل الوحيد الذي يراه أمامه . وقال انه لايمكن ان يسمح للجيش بأن يدمر، او للروح المعنوية بين المدنيين ان تنهار. لقد استطاعت مصر ان تتحمل هذا الموقف طوال ثلاث سنوات ، وليست مستعدة لأن تستسلم الان . واوضح عبد الناصر انه لا يطلب وضع الخبراء السوفييت في الصفوف الامامية، بل سيترك أمر تشغيل الصواريخ على القناة للمصريين ، وانما ما يطلبه من مضيفيه هو القيام بمهمة تشغيل الصواريخ في العمق .

وتبادل جريتشكو وبريجنيف كلمة، قال بريجنيف بعدها ان المشكلة ليست مشكلة خبراء صواريخ فقط، لأن الصواريخ ليست الا جزءا فقط من نظام دفاعي معقد يشمل استخدام الطائرات ايضا . وهنا قال عبد الناصر : " لا بأس .. أرسلوا الطائرات ايضا " . ورد برجنيف بأن هذه الخطوة يمكن ان تترتب عليها آثار دولية خطيرة ، لان فيها كل المقومات التي يمكن ان تخلق أزمة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وهنا قال عبد الناصر : " لماذا يستطيع الامريكيون ان يصعدوا دعمهم لاسرائيل

دائماً ، في حين اننا نتصرف في بعض الأحيان كأننا خائفون ؟ . وقاطعه بريجنيف قائلا : " أننا لانخاف احداً .. اننا اقوى قوة عسكرية على ظهر الأرض ، لكن علينا ان ندرك ان في مثل هذه الخطوة مجازفة كبيرة ، ولست اعرف ما اذا كان لدينا ما يبرر الاقدام عليها ، ولا بد لنا من ان نعيد تقييم موقفنا " . فقال عبد الناصر: " بالنسبة الى موقفي انا ، فاني انتهيت من اعداد الحسابات اللازمة .ودعني أكن في غاية الصراحة معكم . اننا اذا لم نحصل على ما اطلبه ، فان الجميع سيتصورون ان الحل الوحيد هو في ايدي الأمريكيين . ونحن لم نر الأمريكيين يوما يتراجعون في مساعدتهم للاسرائيليين . ان مصر اكبر موقع معاد للاستعمار في الشرق الاوسط ، واذا سقطت في ايدي القوة الامريكية والاسرائيلية ، فان العالم العربي كله سيسقط . اننا لا نطلب منكم ان تقاتلوا نيابة عنا ، فنحن نريد المحافظة على استقلالنا ، لكنكم ، بمقدار ما أرى ، لستم مستعدين لمساعدتنا بالطريقة نفسها التي تساعد بها امريكا اسرائيل ، وهذا يعني انه ليس امامي سوف طريق واحد مفتوح : اني سأعود الى مصر ، وسأقول للشعب كل الحقيقة عن الموقف . سأقول له ان الوقت قد ازف لكي اسلم المسؤولية الى رئيس موال للامريكيين . وما دمت غير قادر على انقاذ شعبي ، فلابد ان يتقدم غيري لانقاذه . تلك هي كلمتي الأخيرة " .

و كهربت كلمة عبد الناصر جو القاعة. وعلى الفور نهض بريجنيف على قدميه وقال : " أيها الرفيق عبد الناصر.. لا تتكلم بهذا الاسلوب .. فأنت الزعيم .. و..." ، وقاطعه عبد الناصر: " أنا زعيم تضرب بلاده بالقنابل كل يوم .. جيشه مكشوف.. وشعبه معرض ، ولدي من الشجاعة ان اعلن لشعبي الحقيقة المحزنة : وهي انهم شاؤوا أم ابوا، فان الامريكيين هم سادة العالم و لن اكون الرجل الذي يستسلم للامريكيين ... وليأت شخص آخر يحل محلي ويكون مستعداً لأن يفعل ذلك " .

وراحت الصيحات تنطلق من اعضاء الجانب السوفييتي : " نرجوك . دعنا نبحث في الامر.. ما الذي تريده حقيقة؟ اعطنا يوما آخر سنرى ما يمكن عمله " . ورد عبد الناصر بأنه يريد اجابة محددة ، فطلب السوفييت تأجيل الجلسة عشر دقائق يبحثون في الامر خلالها في ما بينهم . وخرج اعضاء الوفد المصري الى الحديقة ، وقلت للرئيس : "هكذا... فاننا الآن على الحافة ؟ ". وقال الرئيس : " كلا.. اني لا ازج باحد في سياسة حافة الهاوية. ان ما قلته تعبير صادق عن حقيقة موقفي . اني اخدع الشعب اذا تصرفت بطريقة اخرى . اننا كنا حتى الان ندرب جيشا ، لكن الاسرائيليين يستخدمون اسلحة ليست متوافرة لدينا لكي نواجههم بها : غارات في العمق ... وغارات ضد المدنيين . وحين يقتل الاطفال ... وحين يموت الجنود لأنهم لا يملكون وسائل الدفاع ضد الهجوم ، فان الموقف كله يصبح فوق طاقة الاحتمال ".

و كان قرار السوفييت ان ارسال رجالهم للعمل في قواعد صواريخ " سام ٣" في مصر مسألة حساسة الى درجة تحتم عرضها على المكتب السياسي مجتمعا. وهكذا استدعي اعضاء المكتب من حيثما كانوا وبدأوا يصلون واحدا واحدا في سياراتهم السوداء الكبيرة بستائرها المسدلة على نوافذها. ولأول مرة في تاريخ السلم يؤتى بـ ١٣ ماريشالا سوفييتيا للاشتراك في مناقشات تدور في المكتب السياسي .

وعدنا الى الفيلا الرقم (١) لتناول طعام الغداء . وتحددت الساعة السادسة موعدا للجلسة التالية. وكان من الواضح لمجرد دخولنا قاعة الاجتماعات ان ثمة قرارا قد اتخذ . وكان بريجنيف هو الذي القى كلمة الافتتاح . قال : " ايها الرفيق عبد الناصر.. لقد اتخذ الاتحاد السوفييتي اليوم قراراً مشحونا بنتائج لجسيمة. انه قرار يختلف عن أي قرار سبق لنا اتخاذه ... قرار يحتاج الى عونكم في تنفيذه ، ويتطلب كبح جماح للنفس من جانبكم " . وبعد هذه الكلمة ابلغونا عدد بطاريات صواريخ "سام ٣" التي سيقدمونها الينا، والمواقع التي ستركب فيها، وعدد الرجال الذين سيأتون معها. كما أبلغونا انهم سيرسلون ايضا ٨٠ طائرة سوفييتية، تسبقها ٤ من طائرات الاستطلاع " x ٥٠٠ "، وهي طائرة استطلاع تعتبر صورة من الطائرة " الميج ٢٣ " على ان نرسل نحن ١٨٠٠ من المصريين للتدريب في الاتحاد السوفييتي لمدة ٦ اشهر .

وقد احسسنا جميعا بتغير الجو في هذا الاجتماع ... كان الماريشالات والساسة بوجه عام متحمسين للقرار، لأن الحماسة كان مصحوبة بقلق لدى البعض الآخر منهم ، ولاسيما كوسيجين المتحفظ دائما .

ثم تكلم عبد الناصر ، قال انه يدرك الطبيعة التاريخية للقرار، وانه ممتن له . وقال ان مصر لن تقامر بما سيعطى لها ، بل على العكس ، فإن في نيته أن يهديء الأمور بقدر الامكان ، لأن هدفه الرئيسي هو التركيز على اعداد القوات المسلحة للمهمة المقبلة . ويستطيع ان يعد بأننا- بمثل هذه المعونة التي ستقدم الينا- سنستطيع ان نتم استعداداتنا للمعركة. وقال للسوفييت ايضا : " اني اريد رجالكم عندنا لفترة محدودة، ولا اريدهم ان يكونوا في مصر عندما تبدأ المعركة، لكن الفترة الفاصلة ستكون فترة صعبة للغاية، وسيساعدوننا خلالها على سدها . ولو كان سمح للا سرائيليين بأن يستمروا في تحطيم معنويات الشعب والجيش لاستطاعوا ان يأتوا ويأخذوا ما يشاؤون ، ولما أمكننا ابدا ان نرفع رؤوسنا مرة اخرى".

وفي احدى اللحظات غادر بريجنيف مقعده وسط الجانب الاخر من مائدة الاجتماع ودار حولها حيث جلس الى جانبي، وقال بالروسية، في مودة بالغة : " ايها الرفيق هيكل.. من الطبيعي ان الامريكيين والاسرائيليين سوف يعرفون في يوم ما تم عليه الاتفاق هنا ، وما اريده منك- قبل ان يحدث ذلك- هو ان تضع خطة نستطيع بمقتضاها ان نواجه الحملة التي سيشنونها ضدنا على وجه اليقين ... ضدنا كلينا : مصر والاتحاد السوفييتي ". وقلت : " سيدي السكرتير العام ... ان صنع القرارات الكبيرة هو من عمل الساسة . وفي استطاعتنا نحن دائما ان نجد الطرق والوسائل التي نقدم بها قراراتهم الى العالم " .

وحين عدنا الى القاهرة، كان من الاولويات الواضحة التي لابد من اتخاذ قرار بشأنها ، هو الاعداد لمواقع الصواريخ الجديدة . وهناك - في تلك المواقع - واصل المدنيون اسهامهم البطولي . لكن البرنامج كان غاليا في المال وفي الارواح على السواء . فقد كانت مصر تشكو في ذلك الوقت نقصا شديدا في الاسمنت حتى اصبح سلعة نادرة ، لان تلك كانت السنة التي كان من المقرر ان ينتهي العمل خلالها في بناء السد العالي، ووجدت الحكومة نفسها ملتزمة بالفراغ من بناء سدين عاليين في وقت واحد، احدهما في اسوان والآخر للصواريخ . وحين اصبح الأمر متعلقا باعتمادات السماد فان الأولوية تقررت للصواريخ ...

وفي اوائل شهر ابريل (نيسان) وصلت اولى طائرات الاستطلاع السوفييتية واستقرت في القاعدة الجوية في جاناكليس في قلب الصحراء على بعد ٥٠ كيلومترا من الاسكندرية ، كذلك في بني سويف. وفي يوم ١٨ ابريل (نيسان) حدث اول احتكاك لها مع الاسرائيليين . فقد اقتربت بعض الطائرات الاسرائيلية في ذلك اليوم من السخنة، واندفعت الطائرات السوفييتية في الجو تتصدى لها، واستدارت الطائرات الاسرائيلية عائدة في اتجاه سيناء . وتعقبتها الطائرات السوفييتية، وكان الحديث بين طياريها طوال تلك الفترة باللغة الروسية . وابلغ عبد الناصر بما حدث فتساءل بلهجة الاستغراب : كيف يتفق هذا مع كل ما دار من حديث حول الضرورة الملحة للاحتفاظ بالسرية المطلقة ؟ وكانت نظريتي الخاصة في هذا الشان ان تلك هي الطريقة التي تدار بها اللعبة بين القوتين العظميين : انها كانت اشارة الى الامريكيين بأن السوفييت وصلوا الى مصر. وايا كان التفسير، فان الاسرائيليين كانوا قد تلقوا الرسالة. ولم تحدث اية غارات اخرى في العمق بعد ٨ ابريل (نيسان) .

وهذا التفسير نفسه قد يكون وراء القصة العجيبة لوصول اول شحنة من الصواريخ الى الاسكندرية بعد ذلك بأيام . فمرة اخرى، وتلبية للتوصية الصارمة بشأن السرية المطلقة، اتخذ المسؤولون المصريون اجراءات لوصول السفينة بعد حلول الظلام ، ورسوها في ركن قصي من الميناء. وضوعفت احتياطات الامن وبدأت عملية التفريغ ، وحين تمت، اختار السوفييت - وسط دهشة المسؤولين المصريين - ان

يقودوا حمولة الصواريخ الى مواقعها المختارة في سيارات نقل سارت وسط شوارع المدينة، وفي عز الظهر، والسوفييت يجلسون فوقها يلوحون للجماهير ويصيحون بالروسية : " أصدقاء". ويمكن الاستنتاج من هذا ان السوفييت ارادوا ان يبلغوا الامريكيين مقدما بوصول الصواريخ ، تماماً كما فعل الأمريكيون عندما ابلغوا عن بيعهم الاسلحة لايران .

الجزء الثامن
"مشروع روجرز "

في التاسع من شهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٩، أعلن وزير الخارجية الامريكية مشروعه الذي عرف باسم " مشروع روجرز" . وقال في خطاب ألقاه في مؤتمر عن تعليم البالغين ان السياسة الأمريكية تستهدف " تشجيع العرب على قبول سلام دائم قائم على اتفاقية ملزمة ، وتشجيع اسرائيل على الانسحاب من الاراضي المحتلة بعد ان تضمن لها السلامة الاقليمية " . وقال ان النصوص التفصيلية للسلام والمتصلة بضمانات الامن على الأرض يجب ان يتم التوصل اليها بين الجانبين " تحت اشراف الدكتور يارنج وعلى غرار ما تم في رودس العام ١٩٤٨ وفي نطاق السلام والاتفاق على ضمانات محددة للأمن ، فان الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المصرية يكون مطلوبا " . و" ضمانات الأمن " هذه يجب ان تشمل شرم الشيخ ، ومناطق منزوعة السلاح في سيناء ، و" ترتيبات نهائية" بالنسبة الى قطاع غزة .

وفي ٢٢ديسمبر (كانون الأول) رفضت الوزارة الاسرائيلية المشروع با عتباره " تهدئة للعرب ". وفي اليوم التالي قال روجرز في مؤتمر صحافي انه يرى ان كلمة "تهدئة" كلمة من المؤسف استخدامها، لآنها تحمل معنى ان العرب اعداء الولايات المتحدة ، في حين ان الجانبين ظلا لسنوات طويلة تجمع بينهما علاقات صداقة.

وفي اوائل ١٩٧٠ أعلن الامريكيون انهم يودون ايفاد وكيل الخارجية الامريكية جوزيف سيسكو الى القاهرة، اذا كان عبد الناصر مستعدا لاستقباله . وكان عبد الناصر بالتأكيد مستعدا لذلك ، لانه كانت لديه اسباب عدة ، اولها، بطبيعة الحال ، محاولة استكشاف الطريقة التي يفكرون فيها، ومعرفة مدى ما يعرفونه من حقيقة ما يجري في مصر، لأن العمل في بناء جدار الصواريخ كان يمضي في اقصى سرعته. وهكذا لقي سيسكو ترحيبا حارا فاق ما استقبل به في بعض العواصم الاخرى التي كان تقرر زيارتها . (ففي بيروت مثلاً احرق المركز الثقافي الامريكي عن آخره ، وفي عمان قامت تظاهرات بلغت من العنف حدا كان لا بد معه من الغاء الزيارة) . وقد وصل الى القاهرة يوم ١٠ ابريل (نيسان) ، واستغرقت زيارته اربعة ايام .

وقابل سيسكو الرئيس عبد الناصر يوم ٣ ابريل ، (نيسان) ، وابلغه ان حكومة نيكسون " اكثر مرونة" من اية حكومة اخرى بالنسبة الى مشكلة الشرق الاوسط ، وقال انه ليس احمق ليحاول ان ينكر ان الولايات المتحدة ملتزمة بتأييد اسرائيل ، لكن ما يريدونه هو" سياسة متوازنة " . وقال ايضا انهم لا يتفقون مع جولدا مائير في ان كل ما يحتاج اليه الموقف هو مفاوضات مباشرة بين اسرائيل والعرب. كما ذكر ان امريكا هي الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تساعد على تحقيق انسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة، لكنها تحتاج من اجل تحقيق ذلك الى " نقطة ارتكاز" ، وان مشروع روجرز، في نظرها، يمكن ان يكون بمثابة هذه النقطة . ثم اعرب عن رأيه في ان المشروع " في صالح مصر ٩٥ في المئة " .

وذكر عبد الناصر ان الولايات المتحدة مستمرة في مد اسرائيل بالتأييد الكامل في مجلس الأمن مهما فعلت، وانها لم تستنكر اجراءاتها غير " المشروعة وعدواناتها العديدة . وقال ان الطائرات التي ضربت

منذ ٣ ايام مدرسة مصرية وقتلت خمسين طفلاً ، طائرات امريكية . ثم قال : " ان هذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها بالمرارة . اني لم اشعر بها ايام دالاس ولا ايام ميثاق بغداد . اما الآن ... وبعد قتل الأطفال والعمال والمدنيين ، فاني اشعر بها " .

وكان الاجتماع غير مثمر .

ومع ذلك ففي يوم اول مايو (ايار) القى عبد الناصر خطابا في عيد العمال تضمن نداء وجهه الى الرئيس نيكسون . وقال انه استقبل سيسكو تلبية لطلب من الرئيس ، وان سيسكو حمل اليه رسالة من الحكومة الامريكية. وهو الآن يريد ان يخاطب الرئيس نيكسون مباشرة .
قال :
" اريد ان اقول للرئيس نيكسون انه اذا كانت الولايات المتحدة تريد السلام ، فعليها ان تأمر اسرائيل بالانسحاب من الاراضي العربية المحتلة . ان ذلك في طاقة الولايات المتحدة التي تأتمر اسرائيل بأمرها لأ نها تعيش على حسابها .
"هذا حل..
" والحل الثاني ان تمتنع عن تسليح اسرائيل ما دامت تحتل الاراضي العربية. فاذا لم تفعل ايا من الامرين فلا مفر من ان يخرج العرب بحقيقة ان امريكا تريد ان تواصل اسرائيل احتلال اراضينا حتى تتمكن من فرض شروطها علينا بالاستسلام " .

وفي اليوم التالي ارسل الى الرئيس نيكسون خطاب خاص يحوي الفقرات المذكورة التي تضمنها خطاب عبد الناصر في عيد العمال . وبعد ذلك بشهر، اقترح روجرز وقف اطلاق النار على جبهة القناة لمدة ثلاثة اشهر، على ان يعقب ذلك بيان تصدره كل الاطراف المعنية عن طريق جونار يارنج ، ينص على اعادة تأكيد القرار الرقم ٢٤٢، مع تركيز خاص على انسحاب الاسرائيليين من الأراضي المحتلة . لكن ايا من هذه الاتصالات لم يحقق شيئا ذا بال .

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٩٧٠ اعلن روجرز في مؤتمر صحافي ان حكومته وضعت مبادرة سياسية جديدة تستهدف تشجيع الدول العربية واسرائيل على " وقف اطلاق النار والبدء في اجراء محادثات ". وتدعو المبادرة جميع الأطراف الى اشتراك في اعادة وقف اطلاق النار لفترة محدودة ، والاشتراك في مبادىء اساسية معينة خاصة بالسلام والامن ، توضع على شكل تقرير من الدكتور يارنج الى يوثانت .

وكان عبد الناصر وصحبه- وانا منهم- في طرابلس في ذلك الوقت، ووصل نص المبادرة الينا هناك. وقد درسه محمود رياض وزير الخارجية وانتهى من دراسته الى انه لا يحوي جديدا. وارسلت نسخة منه الى القاهرة اطلع عليها انور السادات ، الذي لم ير فيه-- شأنه في ذلك شأن رياض - ما يستأهل، والقى خطابا بشأنه في اللجنة المركزية ضمنه وجهة نظره . لكن عبد الناصر اخذه بعد ذلك ليلقي عليه نظرة فاحصة، وقرر انه يتفق مع استراتيجيته الشاملة. فقد كان الجيش حينئذ اصبح مستعدا، وكان الاتحاد السوفييتي مشتركا بطريقة فعلية في الدفاع عن المدنيين في مصر ضد الغارات الجوية الاسرائيلية. وكان اكبر ما يشغل اهتمام عبد الناصر في ذلك الوقت هو الانتهاء من بناء جدار الصواريخ . ذلك ان اتمام بنائه لم يكن سيحمي قواتنا المسلحة في الضفة الغربية للقناة وحسب، لكنه سيكفل الحماية فوق شريط يراوح عرضه بين ١٥ و ٢٠ كيلومترا في الضفة الشرقية ، ويهيىء بذلك غطاء للقوات التي ستعبر القناة عندما يحين الوقت . وفي ظني ان عبد الناصر كان اتخذ قراره قبول مبادرة روجرز في اثناء وجوده في طرابلس، وان لم يكن هناك من عرف به الا في ما بعد .

الجزء التاسع
الزيارة الثانية لموسكو

في التاسع والعشرين من شهر يونيو (حزيران) قام عبد الناصربزيارته الثانية للاتحاد السوفييتي في ذلك العام . وكنت وقتها وزيرا للارشاد القومي وعضوا رسميا في الوفد المصري . واذكر اننا في ليلة وصولنا لحقتنا برقية من القاهرة بنبأ عن اسقاط طائرتين اسرائيليتين من طراز " فانتوم ". وصباح اليوم التالي سمعنا ان طائرة من طراز " سكاي هوك " قد اسقطت بصاروخ ايضا . وهكذا ، فاننا عندما دخلنا قاعة الاجتماع لاجراء المباحثات مع الوفد السوفييتي فان عبد الناصر حيا بريجنيف قائلاً: وأخيرا.. لدينا الان انباء طيبة. لقد اسقط جنودنا ثلاث طائرات اسرائيلية ". ونظر بريجنيف الى الماريشال جريتشكو الذي اخرج من جيبه ورقة القى عليها نظرة ثم قال كلاما لبريجنيف باللغة الروسية نظر بريجنيف على اثره الى عبد الناصر وقال : " الرفيق عبد الناصر.. اظنك مخطئا في الحساب، فان ما لدينا من معلومات يقول ان حصيلتكم من الطائرات امس كان ست " . وكان جريتشكو تحدث قبل ذلك مباشرة مع كبير مستشاري الدفاع الجوي السوفييتي بواسطة الخط التلفوني المباشر الذي تم تركيبه للاتصال بين وزارة الدفاع في موسكو ومكتب كبير الخبراء السوفييت في القاهرة .

وفي هذا الاجتماع اظهر كوسيجين اهتماما بالغا بليبيا، وتحدث في موضوعها ما يزيد عن الساعة، وكان مما قاله ان تقديراته ان لدى الليبيين اعلى نسبة للفرد من انتاج البترول في العالم ، وان متوسط نصيب كل فرد في ليبيا يبلغ ٧٠ طنا من البترول في السنة . وكانت الدهشة واضحة عليه وهو يذكر الارقام، كما بدا عليه الاهتمام الشديد حين ابلغه عبد الناصر احتمال اقامة وحدة بين ليبيا ومصر وسوريا.

وقد شهد هذا الاجتماع الذي عقد في الكرملين حادثا غريبا، اذ رأينا الباب يفتح على غير انتظار ويدخل منه احد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية ويعطي فلاديمير فينوجرادوف نائب وزير الخارجية ورقة صغيرة قرأها ، ثم اعطاها لجروميكو وزير الخارجية فقرأها، ثم قام من مقعده واعطاها لكوسيجين فقرأها، ثم اعطاها لبريجنيف فقرأها ، ثم اعادها لكوسيجين ، فاعطاها بدوره لبودجورني فقرأها، ثم اعادها الى كوسيجين ، ومنه ثانية الى بريجنيف الذي وقعها واعطاها لكوسيجين فوقعها ايضا، ومنه لبودجورني فوقعها ، ثم اعطاها لجروميكو، ومنه لفينوجرادوف الذي اعادها الى المسؤول الكبير في وزارة الخارجية فأخذها وغادر القاعة.

واعتقد ان العملية كلها لم تستغرق اكثر من ثلاث دقائق . وقد بدأت وعبد الناصر يتكلم ، لكنه عندما لاحظ ان الكل مشغول بشيء آخر، فانه توقف عن الكلام . وحين انتهت العملية رأى بريجنيف اعضاء الوفد المصري كلهم يحملقون فيه، واحس بانه لا بد من ان يقدم اليهم تفسيرا ما لما حدث . قال : " ان هذا امر يهمكم ايضا . فقد تلقينا معلومات ان محاولة انقلاب ستجري في الصومال الليلة ضد الجنرال زياد، وعليه قررنا ان نبعث اليه ببرقية تحذير. وهي البرقية التي قرأناها الان ووافقنا عليها " .

وبعد ذلك ، وفي اثناء خروجنا من الاجتماع قال لي عبد الناصر: " أرأيت ما حدث؟ " . قلت : " تعني تلك الورقة الصغيرة؟ ". قال : أجل.. اليست هذه بيروقراطية زائدة عن حدها .. فاذا كان مجرد ارسال برقية الى الجنرال زياد في الصومال يتطلب توقيع الثلاثة كلهم ، اذن فاننا في مأزق . ولقد فهمت الان السبب في ان طلباتنا تستغرق مثل هذا الوقت الطويل قبل ان تظهر نتائجها " .

الجزء العاشر
قبول مبادرة روجرز

بعد اربعة ايام من المحادثات في موسكو دخل عبد الناصر مستشفى بيرفيكا للعلاج فترة اسبوعين، وعدت انا الى القاهرة . وقد عقد عبد الناصر اجتماعا آخر مع بريجنيف قبل ان يعود وتلقى خلاله ردا

على الطلب الذي قدمه بشأن السلاح . وكان عبد الناصر ذكر لبريجنيف في احد الاجتماعات السابقة انه يعتزم قبول مبادرة روجرز. وانزل بريجنيف نظارته من فوق عينيه الى انفه وحملق في عبد الناصر وقال متسائلاً : " اتعني انك تريد ان تقول انك ستقبل اقتراحا يحمل العلم الامريكي؟ " . فقال عبد الناصر: " بالضبط . اني سأقبله لمجرد ان عليه العلم الامريكي . اننا بحاجة ماسة الى فسحة من الوقت نتنفس فيها حتى نستطيع ان نتم بناء قواعد الصواريخ . ونحن بحاجة الى ان نهيىء لجيشنا فترة راحة حتى يستعد لقفزته الكبيرة ، ونخفض عدد ضحايانا من المدنيين . واننا محتاجون الى وقف لاطلاق النار. ووقف اطلاق النار الوحيد الذي يمكن ان يقبله الاسرائيليون لا بد ان يكون مصدره اقتراحا امريكيا. لكني لا اظن ان هناك اية فرصة لنجاح المحاولة ، ولا اعتقد ان احتمالات نجاحها تتجاوز ١/٢ في المائة . وكان بيجنيف مندهشاً ، لكنه كان فاهماً .

وكان عبد الناصر قرر أن يتم اعلان قبوله مبادرة روجرز في خطابه الذي سيلقيه يوم ٢٣ يوليو (تموز) . وكان القاء هذا الخطاب عذاباً حقيقياً له ، وترددت موجات الصدمة الناجمة عنه على الفور في انحاء العالم العربي كله . وقد تصور البعض ان الخطاب هو نتيجة لضغط من جانب السوفييت لأن عبد الناصر كان عاد لتوه من رحلته الى موسكو ، في حين ان دهشة القيادة السوفيتية لمحتوياته لم تكن اقل من دهشة أي جانب آخر .

وكنت في ذلك الوقت اتولى منصب وزير الخارجية بالنيابة ، في اثناء فترة غياب محمود رياض وزير الخارجية في زيارة لدول البلقان ، ووقع علي عبء التفاوض بشأن تفصيلات وقف اطلاق النار الذي قفز امامنا كنيجة فورية لقبول محاولة روجرز .

وقد ابلغني دونالد بيرجس المشرف على رعاية المصالح الامريكية في القاهرة انه بمجرد سريان مفعول وقف اطلاق النار ستقوم الولايات المتحدة باعداد ترتيبات يستدعي اسحاق رابين السفير الاسرائيلي في واشنطن بموجبها الى اسرائيل ليصبح رئيساً للوزراء ، وبعدها يمكن توقع بعض التقدم الحقيقي . وقد تولى رابين هذا المنصب الآن ، وهو منصب كان الامريكيون يحتفظون به لديان خلال فترة مبادرة روجرز على اساس انه " الديجول " الذي يمكن أن يقنع الاسرائيليين بالحاجة الى تقديم تنازلات .

وقد أخذنا على غرة بالطلب المفاجيء الذي قدم الينا بوقف " فوري وعلى المواقع " لاطلاق النار ، وهو شيء جديد بالنسبة الينا . فقد كنا نفكر في وقف لاطلاق النار على غرار ما حدث في العام ١٩٤٨ ، ولكن قيل لنا ان كل شيء يجب أن يتم خلال ساعات . وطلب عبد الناصر مني أن أعمل على كسب بعض الوقت له . وقال انه محتاج الى ست ساعات يتمكن خلالها من وضع صواريخ هيكلية ثابتة في بعض المواقع التي كانت تحتلها صواريخ متحركة ، لأن الاقمار الصناعية ستصور بطبيعة الحال المراكز الدقيقة لكل الاسلحة لحظة بدء تنفيذ وقف اطلاق النار . وكان عبد الناصر يريد أن يكون قادراً على احلال الصواريخ الحقيقية محل الصواريخ الهيكلية التي ستحل بدورها في المواقع المتحركة .
وهكذا ، فإنه على رغم أن دونالد بيرجس ظل على اتصال تلفوني مستمر بي يقول ان واشنطن وتل ابيب بدأتا تفقدان الصبر ، فإني استطعت ان اهديء من عصبيته ، اذ قلت له اننا لابد أن نتأكد من ان الاشارة وصلت الى مواقعنا البعيدة على البحر الأحمر ، واننا لانريد حوادث ، وانما نريد وقفاً لاطلاق النار يكون نافذ المفعول ... الخ . وقد حصل عبد الناصر على الساعات الست التي طلبها وأمكن بما يشبه المعجزة وضع الصواريخ الهيكلية خلال الليل ، بحيث كانت جاهزة للتصوير من جانب الامريكيين قبل الفجر في اليوم التالي . وقد تظاهر الامريكيون بالقلق لنقل الصواريخ ، وحاولنا أن نشرح لهم انه كانت هناك صواريخ متحركة في هذه المواقع ، لكنهم لم يقبلوا ، ثم اندفعوا الى تزويد الاسرائيليين بمزيد من السلاح ، وكان واضحاً ان حكاية الصواريخ مجرد ذريعة لما يريدون .

وأثار قبول مصر لمبادرة روجرز غضب الكثيرين من العرب ، ولا سيما بعض الفلسطينيين ، وأصدر نايف حواتمة وجورج حبش بياناً قالا فيه ان على أولئك العرب الذين اتعبهم الكفاح أن يتنحوا للجيل الأصغر المستعد لبذل التضحيات اللازمة . وكان عبد الناصر يقدر المرارة التي يشعر بها الفلسطينيون . وكان أكثر ما يخشاه أن يظن الملك حسين أن فرصته حانت لمواجهة مع المقاومة على أساس أن راعيها : عبد الناصر .. قد تخلى عن تأييده لها . ولذا ، فإنه طلب الى كل من الملك حسين وياسر عرفات أن يحضروا الى القاهرة للاجتماع معه . وجاء الملك حسين يحمل شكاوى عدة من أن المقاومة أصبحت دولة داخل الدولة ... الخ . وتكلم عبد الناصر معه بصراحة ، قال : " أنا لا اريدك أن تصفي المقاومة ، ولا للمقاومة أن تصفيك . ولا جدال في انك تملك القوة لسحق المقاومة ، لكنك لابد لك لتحقيق ذلك أن تذبح ٢٠ الف شخص ، وتتحول بلادك بعد ذلك الى مملكة للاشباح . وسأقول للمقاومة ان عليها ان عليها ألا تستفزك لانها لا تستطيع ان تحصل لنفسها على ما تهيئه لها حكومتك من اشياء ضرورية كالتعليم والمواصلات والمواد التموينية وغيرها . ولا بد لكما كلاكما من ان تتعايشا معاً فذلك هو السبيل الوحيد " . وعاد الملك حسين غير سعيد بما سمع .

ولم يكن جو اللقاء مع ياسر عرفات مريحاً ، لأن مصر كانت قد اضطرت الى وقف اذاعة المقاومة من القاهرة بعدما بدأت حملة من الهجوم الشديد على مصر ، وعبد الناصر ، ومبادرة روجرز ، وعلى كل شيء ، بأقسى الالفاظ . وكنت وزيراً للارشاد القومي (الاعلام) في ذلك الوقت ، وطلب الي أن أحاول اقناع المسؤولين الفلسطينيين بتخفيف حدة هذا الهجوم . وقلت لأبو اللطف – أحد هؤلاء المسؤولين – انهم يستطيعون مهاجمة مبادرة روجرز كما يشاؤون ، ولكن ليس من أن يصفوا من قبلوا المشروع من العرب بالخيانة . وقد بعث بالرسالة الى عمان . وبعد يومين تلقت اذاعة فلسطين رسالة بالشيفرة التقطتها المخابرات المصرية ، وكان نصها : " لا تخضعوا للضغط من أي جهة . وهاجموا من تشاؤون " . وعندئذ طلب عبد الناصر الى وزير الداخلية أن يوقف الاذاعة . وقد كان .

وقدم عبد الناصر الى عرفات تفسيراً صريحاً لما كان يحاول ان يفعله ، وقال انه لا يرى ان فرصة النجاح بالنسبة الى مبادرة روجرز تزيد على ١/٢ في المائة ، ومع ذلك ، فحتى هذا النصف في المائة جدير بأن يمنح فرصة التجربة . كذلك ، شرح له الحاجة الى اتمام بناء جدار الصواريخ واستحضار معدات الجسور، وقال ان المضي في حرب الاستنزاف بينما اسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه أننا- ببساطة- نستنزف انفسنا.

وعلى رغم أن عبد الناصر كان في ذلك الوقت تقريباً أصدر الأمر للفريق فوزي بأن يستعد للعملية "جرانيت ١" التي ستمهد لعبور القناة والتقدم الى الممرات- بعدما أصبح جدار الصواريخ مؤثراً بالفعل- فانه لم يكن بطبيعة الحال يستطيع ان يقول هذا للفلسطينيين في تلك المرحلة.

الجزء الحادي عشر
مؤتمر القاهرة

في اوائل شهر سبتمبر (ايلول) بدأت العلاقات تزداد تدهوراً بين الملك حسين والمقاومة ، وبدا الصدام بينهما وشيكاً . وكان عبد الناصر في ذلك الوقت يقضي فترة اجازة في مرسى مطروح بعدما تلقى رسائل عدة من البروفسور شازوف من موسكو يؤكد فيها أن هناك ضرورة قصوى لان يقضي شهراً كاملا على الأقل في راحة تامة ، لا يسمع فيها راديو، ولا يدلي بأحاديث ، ولا أي شيء آخر. ووافق عبد الناصر على أن يستريح لمدة ١٠ أيام ، ولكن في يوم وصوله الى مرسى مطروح بدأ الملك حسين عملياته ضد المقاومة. وجاء عدد من زعماء المقاومة الذين كانوا في القاهرة في ذلك الوقت لمقابلتي، وقالوا انه اذا لم تصدر أية كلمة في هذا الشأن ، فان الملك حسين وحاشيته سيعتبرون سكوته بمثابة الضوء الأخضر لهم للمضي في هذه العمليات . وكان من الواضح في المساء ان الموقف في عمان

يتدهور بشدة ، مما اضطرنا - بعد كثيرمن التردد - الى الاتصال بعبد الناصر وابلاغه الانباء وكان قراره، كخطوة اولى ، ان يوفد الفريق محمد احمد صادق ، رئيس الاركان المصري الى عمان برسالة يذكر فيها الملك بالتحذير الذي كان عبد الناصر قد وجهه اليه بشأن عدم الاقدام على أية محاولة لتصفية المقاومة، ولاقناعه بأن نشوب حرب أهلية في الاردن معناه ، ببساطة، أننا وقعنا في فخ لعبة الاسرائيليين والامريكيين . وقد سافر الفريق صادق وعاد يحمل انطباعاً أن الملك حسين يحاول ان يكسب الوقت، وأن الكثيرين من افراد اسرته وحاشيته يدفعونه الى مواجهة حاسمة مع المقاومة..

وبعد ذلك مباشرة تدهور الموقف بسرعة، فقد ارسل السوريون بعض دباباتهم عبر الحدود الاردنية الى الرمثا ، وجاء نور الدين الاتاسي رئيس الدولة السورية الى القاهرة ، يحمل رغبة واضحة من جانب السوريين والعراقيين في التدخل بالقوة في القتال الدائر في عمان . وفي الوقت نفسه، فان الامريكيين ابلغوا الروس انهمم لن يقبلوا مثل هذا التطور ، ونقل الروس هذا التحذير- الذي صيغ بلهجة شديدة - الى عبد الناصر. وكان الجو عندئذ جو ازمة دولية خطيرة لم يجد عبد الناصر معها بداً من ان يدعو الى مؤتمر قمة لملوك الدول العربية ورؤسائها .

وعقد المؤتمر في القاهرة يوم الاربعاء ٢٣ سبتمبر (ايلول) ، وبدا واضحا منذ بدايته ان هناك اتجاهين في الرأي بين المشتركين فيه . كان هناك رؤساء كالقذافي ونميري وغيرهما يرون انه لا بد من ان يوضع الملك حسين في قفص الاتهام . وكان آخرون- من بينهم عبد الناصر- يرون ان الواجب الاساسي هو الا نفقد رؤيتنا للهدف الرئيسي عن عقد المؤتمر وهو: وقف المذبحة. وكان من رأي عبد الناصر انه اذا احس الملك حسين بأنه منبوذ ، فانه سيجد المبرر لقطع اتصالاته بالحكومات العربية الأخرى والمضي في حملته ضد المقاومة. كذلك فان عبد الناصر كان يرى دائماً ان في شخصية الملك حسين جانباً طيباً مع الجانب الغامض في شخصيته ، وأن الحكمة تقتضي التركيز على هذا الجانب الطيب .

وفي ٢٤ سبتمبر (ايلول) سافر الى عمان وفد يرئسه الرئيس نميري ويضم الباهي الادغم رئيس وزراء تونس والفريق صادق . وكانت مهمة الوفد أن يقابل الملك حسين ويحاول الاتصال ببعض زعماء المقاومة، ومنهم ياسر عرفات نفسه الذي تردد انه يقود المقاومة من مخبأ في مكان ما في جبل عمان . وعاد الوفد مذهولا مما رأى ، وقال الباهي الأ دغم ان ما شاهدوه لا يمكن ان تصفه اية دولة متحضرة بأنه "عملية بوليسية" وانما هو عملية عسكرية ضخمة . وقال الفريق صادق ان الترتيب لهذه العملية لا بد ان يكون تم منذ وقت طويل . وفي تلك الاثناء كان عبد الناصر تلقى معلومات أن العملية تمت بالتعاون بين المخابرات الامريكية وعدد من الاردنيين في الاردن نفسه من بينهم وصفي التل.
وقال الملك فيصل في كلمة تحذير: ان علينا أن نتأكد ممن هو المسؤول عن القتال... فان المقاومة لديها سلاح، شأنها شأن الجيش الأردني . وأضاف ان هناك شائعة أن ابوعمار (ياسر عرفات) موجود في السفارة المصرية. ورد عبد الناصر أن عرفات زار السفارة المصرية مرة بغرض مقابلة الفريق صادق، لكنه ليس مختبئاً في السفارة كما يزعمون .

وأعتقد ان جانبا من المناقشات التي دارت بين الرؤساء- والتي انشرها على هذه الصفحات - يمكن ان يوضح الجو الذي ساد المؤتمر :
الملك فيصل : " اني متفق مع فخامتكم (لعبد الناصر) ان ذلك كله يبدو كأنه خطة لتصفية المقاومة.
القذافي : " اني غير متفق معكم في الجهود التي تبذلونها . واعتقد انه لا بد من ارسال قوات مسلحة الى عمان... قوات مسلحة من العراق و سوريا " .
الملك فيصل : " تريد ان ترسل قواتنا المسلحة للقتال في الاردن؟.. هذا ليس عملياً " .
الرئيس عبد الناصر: " اظن ان علينا ان نتحلى بالصبر" .
الملك فيصل (ينظر الى القذافي) : " أظن انه اذا كان علينا ان نرسل جيوشنا الى اي مكان ، فلا بد ان نرسلها لتقاتل اليهود" .

القذافي : " ان ما يفعله حسين ابشع مما يفعله اليهود... والمسألة كلها اختلاف في الاسماء" .
الرئيس عبد الناصر: " الصعوبة هي أننا اذا ارسلنا جنوداً الى الاردن ، فان ذلك لن يؤدي الا الى تصفية بقية الفلسطينيين... واريد منكم ان تستمعوا الى رسالة تلقيتها هذا الصباح من الاتحاد السوفييتي.
انهم يطلبون منا التمسك بأقصى قدر من ضبط النفس ، لأن الموقف الدولي اصبح دقيقاً للغاية، وأي خطأ في التقدير يمكن ان يؤدي الى أن يفقد العرب كل السمعة التي اكتسبوها خلال السنوات الثلاث الماضية " .
القذافي : " ما زلت معترضا. فاننا اذا كنا نواجه مجنونا كحسين يريد أن يقتل شعبه ، فلا بد من أن نرسل من يقبض عليه ويضع الاغلال في يديه، ويمنعه من أن يفعل ما يفعل ، ويحيله الى مستشفى مجانين ".
الملك فيصل : " لا أظن أن من اللائق ان تصف ملكا عربياً بأنه مجنون ، يجب ان يوضع في مستشفى مجانين ".
القذافي : لكن اسرته كلها مجانين .. والمسألة مسألة سجل " .
الملك فيصل : " حسناً.. ربما كنا كلنا مجانين " .
الرئيس عبد الناصر : " في بعض الاحيان حينما ترون جلالتكم ما يجري في العالم العربي، ان ذلك ربما يصبح صحيحاً . واقترح ان نعين طبيبا يكشف علينا بصورة منتظمة ليتبين من هم المجانين من بيننا ".
الملك فيصل : اريد ان يبدأ طبيبك بي ، لأني اشك ، بالنظر الى ما اراه ، في اني استطيع الاحتفاظ بتعقلي " .
الرئيس عبد الناصر: " على أية حال .. دعونا نعد الى موضوعنا الاصلي . اني اقترح ان يصدر على الفور بيان باسم الرئيس نميري يقول ان الملك حسين قطع للوفد عهداً بانهاء القتال " .
القذافي : " الملك حسين لن يتراجع ما لم يحس بخنجر فوق عنقه " . وعادالرئيس نميري الى عمان بعد ذلك بيومين، وتمكن واعضاء الوفد من تهريب ياسر عرفات معهم أثناء عودتهم الى القاهرة. وكان الملك حسين قد اذن لنميري وحسين الشافعي وسعد العبدالله ، وزير الدفاع الكويتي، بأن يذهبوا الى جبل عمان للاتصال بياسر عرفات ، وفي اثناء وجودهم هناك طلب سعد العبد الله الى سكرتيره ان يخلع "دشداشه " (العباءة الطويلة التي يرتدونها في شبه الجزيرة العربية) ويعطيه لعرفات الذي ارتداه ودخل المطار.

وكان فندق النيل هيلتون قد حجز كله للمؤتمر، وخصص لكل رئيس وفد ومستشاريه ورجال حرسه وغيرهم ، طابق بحاله، وكان عبد الناصر ينزل في الطابق الحادي عشر. وكنت ظهر أحد الايام - وكانت فترة نسبياً من فترات المؤتمر حيث كان غيري في عمان وليس أمامنا الكثير نفعله الى حين عودته- أجلس معه نتبادل الحديث وقلت لى انه لجميل ان يقيم الانسان في الفندق بين الحين والحين كنوع في التغيير. فقال : " أنا لا أجد ذلك جميلاً . أنه كالقشلاق "، ثم قال انه جائع وسأل : "هيكل... أتظن ان الطعام هنا في الهيلتون مختلف عن الطعام الذي آكله في البيت؟ " قلت : " المسألة تتوقف... ما الذي ستطلبه "، قال انه يريد بعض " السندويتشات ". وارسل في استدعاء سفرجي عاد بنوع "سندويتشات " الجبن الابيض نفسه الموجود دائماً في بيت عبد الناصر. وكان التفسير لذلك ان دواعي الأمن استدعت احلال طهاة الرؤساء الخصوصيين محل طهاة فندق هيلتون وعمال مطبخه . وقلت لعبد الناصر ان هذا ليس نوع الطلب الذي كان يحب ان يطلب في فندق كالهيلتون . فقال : " وماذا يطلب الناس في الهيلتون عادة؟ " فقلت : "عادة.. في منتصف النهار لا يطلبون "سندويتشات " جبن.. ربما طلبوا "كانابيه " (قطع صغيرة من الخبز المستطيل) بالسالمون المدخن " ، وأضفت ضاحكا ومداعباً: " وربما بعض المارتيني ". فقال : "المارتيني .. الا يخشون ان يكون ذلك سبباً في دخولهم النار في الاخرة؟ ". وقلت انهم يعتقدون ان الله غفور رحيم ، وان " المهم هو تصرفات الانسان وسلوكه ".
وسكت عبد الناصر لحظة ثم سأل فجأة سؤالا غريباً عدت الى تذكره كثيراً في ما بعد : "هل انت مؤمن؟ "، فقلت : " أجل.. وبالقطع انا مؤمن ". فسأل : " اذن قل لي... ماذا بعد الموت؟ " فقلت : " ذلك سؤال

بالغ الصعوبة. وأعتقد ان الجنة والنار هما هنا فوق هذه الأرض ، وربما كان القصد من ذكرهما هو الرمز للخير والشر.... وفي امكاننا نحن انفسنا ان نجعل من حياتنا جنة او ناراً . أما بعد الموت فربما كانت النهاية ". فقال عبد الناصر : " اتعني ان من يفعل خيراً على هذه الارض لا يدخل الجنة؟ ". قلت : " لا ادري ... وانما أظن ان الجنة والنار رموز" . قال : " ذلك يعني اننا بالموت ننتهي... وهذا كل شيء " . قلت : "هذا كل شيء" . فقال : "هذا ليس مطمئناً ". وبعد ثلاثة أيام كان عبد الناصر قد انتقل الى رحاب الله .

وفي كل مؤتمر من المؤتمرات جانبه الساخر... ولم يكن هذا المؤتمر ليختلف عن المؤتمرات الاخرى. هناك مثلاً حادث "هروب " الجنرال محمد داود الذي كان الملك حسين عينه رئيساً للوزراء حين قرر التخلص من عبد المنعم الرفاعي واسناد الحكم الى وزارة عسكرية بدلا من الوزارة المدنية تكون أقدر على التعامل مع المقاومة . وكان للجنرال داود ابنة تتلقى العلم في بيروت ، وحين سمعت أن والدها كان مشتركا في مؤتمر القمة، جاءت الى القاهرة، وناشدته الا ينضم الى جانب الملك في اجراءاته ضد المقاومة. كذلك ، فان القذافي شدد عليه في هذا الطلب ، وقال لرئيس الوزراء التعيس انه يخون القضية العربية، وانهمرت الدموع من عيني الجنرال وقال متسائلاً : " وماذا في مقدوري ان افعل؟ " فقال له القذافي مشجعاً : " اترك الخدمة.. ابق هنا وابعث باستقالتك " . واقتنع الجنرال ، وسارع القذافي يبلغ عبد الناصر ما حدث، ورأى عبد الناصر ان ذلك تطور مفيد يساعد على الضغط على الملك حسين. لكن القذافي لم يكن يدري- وقد حصل على ما يريد- ما يفعل بمن هداه ، فاتصل بي ، واقترحت عليه- كوزير للارشاد – أن يعقد الجنرال مؤتمرا صحافيا يشرح فيه للعالم أسباب استقالته . وقلت : " أين هو الآن ؟ " فقال بلهجة بدا فيها الغموض : " لا أستطيع ان اخبرك .. انه مختبىء.. لكني أستطيع ان آخذك اليه ". وذهبنا في سرية شديدة الى حيث أقابله، وكان المكان- لدهشتي الكبيرة- هو قصر القبة.. في الجناح المخصص لاقامة القذافي . وقد سافر الجنرال بعد ذلك الى ليبيا ومنح الجنسية الليبية.

وانتهت اجتماعات المؤتمر في السابع والعشرين من سبتمبر (ايلول) باتفاق وقع بين الملك حسين وياسر عرفات على وقف فوري لاطلاق النار وانسحاب كل قوات الجيش وقوات المقاومة من كل مدينة. في الاردن مساء ذلك اليوم .وكنت انا مشغولا مع الفريق صادق في المساعدة على اعداد الترتيبات اللازمة من **مواصلات** وغيرها للجنة المراقبة التي يرئسها الباهي الأدغم والتي كان مقرراً ان تسافر الى عمان صباح اليوم التالي . ورأيت عبد الناصر قادماً ، وسرت معه ناحية المصعد لاتلقى منه ما قد يريد اصداره من تعليمات . قال : " اريد ان اذهب الى البيت وأتناول طعامي هناك " . وبرغم "سندويتشات " الجبن المفضلة لديه والتي كان يأكلها في الفندق ، فقد كان في المؤتمر الكثير من الحفلات الرسمية التي لم يكن يحبها . وقال انه سينام مبكرا لأن عليه ان يقوم في اليوم التالي بتوديع المسا فرين من الملوك والرؤساء . ودخل الى المصعد ونزل . وكانت آخر مرة رأيته فيها ... باستثناء لحظات الوفاة الحزينة .

الجزء الثاني عشر
وفاة عبد الناصر

في اثناء عودة عبد الناصر الى منزله في السيارة علم ان القذافي في طريقه الى المطار... سافر من دون ان يبلغ احدا حتى لا يقلق راحة مضيفيه. وطلب عبد الناصر الى السائق ان يتجه الى المطار، لكن القذافي كان سافر، فعاد هو الى منزله . وتحدثت اليه في المساء بالتلفون لأ قول له ان السفير البريطاني، سير ريتشارد بومونت، جاء يحمل رسالة من سير اليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية يشكر فيها الحكومة المصرية على العون الذي قدمته بالنسبة الى الرهائن البريطانيين الذين كانوا محتجزين على الطائرة المخطوفة في الاردن .

وصباح اليوم التالي كان مشغولا جدا بوداع الوفود . وقد اتصل بي مرتين ، الاولى في التاسعة والنصف قبل ان يتوجه مباشرة الى المطار، حيث قال انه يشعر بتعب شديد ويود لو عثر على ما يجعله ينام مدة ٢٤ ساعة. وقال : " ان ما احتاج اليه هو النوم الطويل .. العميق "، وان ساقيه تؤلمانه. وسألته : "وما الذي ستفعله في هذا الشأن؟ ". قال انه سيضع رجليه في ماء ساخن وملح (وهو علاج يعتقد ابناء الريف في القرى المصرية انه مفيد) . فقلت بلهجة المحتج : "هذا لن ينفع " .

وفي الساعة الواحدة اتصل بي مرة ثانية ليسأل عما اذا كانت هناك احداث مهمة في العالم . وكان يريد ايضا ان يعرف ردود الفعل الدولية للاتفاقية التي وقعت في القاهرة، ثم قال انه سيتوجه الى المطار ليقوم بالوداع الاخير لامير الكويت، وبعده يعود الى منزله لينام نوما طويلاً وعميقا . ولست ادري ... لكني على اية حال احسست برعشة تسري في بدني عندما سمعته يقول : الوداع الأخير.

وفي اثناء وقوفه في المطار مودعا امير الكويت شعر بأنه غير قادر على الوقوف ، وطلب الى سكرتيره ان تحضر السيارة الى حيث يقف، لانه لا يستطيع ان يمشي اليها كما كان يفعل عادة . وركب السيارة بصعوبة. ، طلب ان يتبعه طبيبه. وفي الثالثة والنصف كان وصل الى منزله ، وكانت قرينته وابناؤه ينتظرونه لتناول الغداء معه ، لكنه قال انه متعب جدا ، ولن يأكل شيئا، ودخل الى غرفته ورقد على فراشه ، ثم أحس بالنقص في السكر الذي يعاوده في بعض الأحيان ، فطلب من قرينته ان تحضر له كوبا من عصير البرتقال ، فذهبت لتعصره بنفسها ، وبعدما اخذ منه رشفة واحدة طلب طبيبه المقيم الدكتور صاوي حبيب ، فدخل واستدعى عددا آخر من الأطباء . وفي الساعة الرابعة كان الأطباء أجروا له رسم قلب ، وكشف التشخيص الأولي عن انه يتعرض لأزمة قلبية حادة .

وطلبت في التلفون، وقيل لي ان الرئيس يريد ان يراني . ولاحظت شيئا غريبا في نبرة صوت السكرتير الذي تحدث الي، واتجهت الى منزل الرئيس باقسى سرعة يساورني شعور بالانقباض. وصعدت السلالم قفزا الى غرفته من دون انتظار للمصعد (الذي كان ركب في البيت بعد اصابته بالازمة القلبية الاولى، والذي كان نجح في ان تبقى هذه الاصابة سرا لا تعرفه قرينته) . ووجدت في الغرفة سامي شرف وشعراوي جمعة ومحمد احمد . ثم ما لبث ان انضم الينا حسين الشافعي وعلي صبري ، ثم وصل انور السادات نائب رئيس الجمهورية . وسألت : " ما الخبر؟ ". فقال احد الاطباء: "انه في اشد حالات التعب ".

وكان الاطباء يتدافعون حوله بالاسعافات السريعة . راح احدهم يدلك قلبه ، بينما استخدم طبيب اخر الصدمة الكهربائية ، ورأيته للحظة خاطفة يرتعش من اثرها ، وقفز طبيب ثالث فوق السرير وبدأ يدلك صدره ، ولكن لم تظهر لذلك كله اية استجابة، ولم يكن هناك من يدرك ان النهاية حانت بالفعل .

وكنا جميعا في تلك الغرفة في حالة من الذهول لمدة ساعتين : الى الساعة السابعة.. نرفض ان نصدق حقيقة اننا في حضور جثمان رجل فارقته الروح . وكان يرقد في سريره وهو يرتدي بيجامته ، والسكينة تكسو وجهه . واذكر ان الفريق فوزي صاح في من كانوا في الغرفة : " افعلوا شيئا"، فاتجه حسين الشافعي الى احد الاركان وراح يصلي . ولربما كنت من اوائل من ادركوا- ولو بالعقل الباطن فقط- حقيقة ما حدث لاني اذكر اني رحت أقول وأعيد : " لا يمكن أن يكون هذا صحيحا.. لايمكن ان يكون هذا صحيحا. لا يمكن ان يحدث.. لا يمكن ان يحدث ". وفجأة انفجر احد الاطباء بالبكاء . وعندها، في ظني، برزت الحقيقة التي كنا جميعا نحاول ان نخفيها عن انفسنا، فقد انفجرنا فجأة في البكاء . واندفعت قرينة الرئيس بعدما سمعت صوت بكائنا ، وجاءت الى الباب تسأل : "ما الذي حدث؟ ". ورأينا ان من الافضل ان نترك الغرفة للأسرة ، واتجه السادات نحو السرير وقبل وجه جثمان الرجل.. ويده ، ثم غطاه بالملاءة . واتجه العديدون منا نحو السرير. واذكر اني شاهدت قرينة الرئيس وانا اغادر الغرفة ترفع الملاءة وتقبل وجه قرينها ويديه ،والحزن الغلاب يكسوها .

الجزء الثالث عشر
الجنازة

ونزلنا من الغرفة- والأنين الحزين من قرينة الرئيس يرن في اذاننا- الى الصالون في الطابق الاول من المنزل. كان هناك انور السادات والى جانبه حسين الشافعي وعلي صبري ومحمد احمد سكرتير الرئيس وسامي شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية، وشعراوي جمعة وزير الداخلية والفريق.. فوزي وزير الحربية، والفريق الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري ، وانا ، وكان السؤال : ماذا بعد؟ وما الذي نفعله؟.

كان من عادة عبد الناصر ان يفتتح المناقشات التي اشترك فيها بأن يسألني رأيي . فقد كان يحب ان يحتفظ بوجهة نظره الى الاخر. واظن انه كان يفعل ذلك لأنه كان يخشى ان يخفي الاخرون وجهات نظرهم الحقيقية الى ان يتبينوا وجهة نظره ، بينما الاثر بالنسبة الي كان مختلفا . فانا قبلي كل شيء صحافي . تعودت ان اقول رأيي وان اكتبه. وفي هذه الاثناء حذا السادات حذو عبد الناصر. وحين تجمعنا كلنا، وكنت الى جواره مباشرة ، نظر الي وقال : "حسنا يا محمد، ما الذي ترى ان نفعله؟ ".

ولم اشعر في حياتي بمثل هذا القدر من المسؤولية- بل لربما يجب ان اقول اني لم اشعر ابدا باني على مثل هذا القدر من الفائدة – كما شعرت في تلك الفترة . فقد كان كل من في الغرفة- باستثنائي- يشغل منصبا رسميا يفكر فيه، وعلى رغم الحزن العميق الذي يحسون به فانهم لا بد يتساءلون عما سيكون لهذه الكارثة من اثر على مناصبهم . اما انا فقد كانت الصدفة هي التي اوجدتني هناك وانا اشغل منصبا رسميا ، واظن اني كنت اتخذت قراري بالفعل لحظة نزولي على السلالم بضرورة وضع نهاية لمنصبي كوزير للارشاد .

وكان ردي على السادات ان علينا ان ندعو الى عقد اجتماع مشترك لمجلس الوزراء واللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، باعتبارهما أعلى هيئتين سياسيتين في الدولة، وان الاعلان الرسمي لوفاة الرئيس يجب ان يكون في بيان يصدر عن الاجتماع . وقلت اني اعتقد ان علينا ان نتبع نص الدستور، ويعني ذلك ان يصبح السادات رئيسا موقتا الى حين اجراء استفتاء لانتخاب رئيس جديد يختاره مجلس الامة بتوصية من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي . ولم يعترض احد على هذه الاقتراحات او يتقدم ببديل لها . وفي تلك الاثناء كانت وصلت الى المنزل عربة اسعاف حملت جثمان عبد الناصر الى قصر القبة، حيث وضع هناك في العيادة الخاصة بالقصر. وتبعنا كلنا الجثمان بسياراتنا. وفي قصرالقبة كتبت صيغة بيان باعلان وفاة الرئيس ، ثم اصدرت بعد ذلك - بصفتي وزيرا للارشاد- تعليمات بوقف البرامج العادية للاذاعة والتلفزيون، وتلاوة القرآن بدلا منها . وقد ادركت البلاد على الفور ان ثمة شيئا جللا قد حدث .. لكن احدا لم يعرف كنهه.

وعقد اجتماع تمهيدي لمجلس الوزراء واللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، اقترحت في أثنائه ان يعد الاطباء الذين تولوا علاج عبد الناصر تقريرا رسميا عن الوفاة ، ففعلوا. وقد كتب الدكتور منصور فايز كبير الاطباء المعالجين للرئيس عبد الناصر بضعة اسطر على " روشته " اخرجها من حقيبته قال فيها ان الرئيس توفي نتيجة انسداد في الشريان التاجي للقلب . ووقع التقرير معه ثلاثة اخرون من الاطباء.

وكان الكل مذهولا... بفعل الحزن والخوف من المجهول . لكن الوقت كان يقترب بسرعة من موعد نشرة الاخبار في الاذاعة، وكان لا بد من ان تتضمن النشرة تفسيرا لهذا التغيير المفاجيء في البرامج. وكان السادات يريدني ان اقرأ بنفسي البيان الذي اعددته، لكني امتنعت وقلت له : " لا اظن اني

الشخص المناسب لاذاعة البيان . واعتقد ان من الضروري جدا في هذه اللحظة ان تشعر البلاد بعامل الاستمرار. واذكر بهذه المناسبة مدى الاهمية التي شعروا بها في اميركا يوم اغتيال الرئيس كينيدي بضرورة احساس الشعب في الولايات المتحدة بان انتقال السلطة تم ببساطة ومن دون تعقيد . ولذلك، فاني اقترح ان تتولى بنفسك كنائب للرئيس اذاعة نبأ وفاة الرئيس على الشعب في الاذاعة وفي التلفزيون ".

ووافق السادات على الاقتراح، وتوجهنا معا الى مكتبي في وزارة الارشاد في الطابق العاشر من المبنى نفسه الذي يضم استوديوهات الاذاعة والتلفزيون . وهناك قرأ السادات بيانا مكتوبا. وكان وسط حالة الارتباك قد نسي نظارته، فاستعار نظارتي وقرأ بها البيان . ثم غادر المبنى، وعدت انا الى مكتبي في "الاهرام " لاكتب قصة الوفاة .

وكان اليوم التالي يوم حزن جارف في البلاد كلها . وقد تقرر ان تشيع الجنازة يوم أول اكتوبر (تشرين الاول) حتى تتاح فرصة الاشتراك فيها للكثيرين من ممثلي البلاد العربية والبلاد الاخرى الذين لا شك يريدون حضورها . وكانت بعض اقرب العناصر الى عبد الناصر بدأت بالفعل تجمعها ومناوراتها لاحتلال مقعد السلطة الخالي الجديد. وقد فكرت في منصبي مليا وازداد يقيني الاصرار على ترك الحكومة والتفرغ " للأهرام ".

وطلب الينا السادات ان نشكل لجنة تبحث في ما يجب اتخاذه تجاه تجديد وقف اطلاق النار الذي كان موعد انتهائه في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) . وسمعنا ان كوسيجين، وشابان ديلماس، وسير اليك دوجلاس هيوم ، واليوت ريتشاردسون، وكثيرين غيرهم من رؤساء الدول الاسيوية والافريقية سيحضرون الى القاهرة للاشتراك في الجنازة. وكنا نعرف انهم سيوجهون الينا الاسئلة بشأن وقف اطلاق النار لمجرد الانتهاء من تقديم التعازي . وهكذا عقد في مكتب الفريق فوزي في الساعة السادسة من يوم ٣٠ سبتمبر (ايلول) اجتماع حضره محمود رياض وزير الخارجية، وامين هويدي وزير الدولة، وحافظ اسماعيل مدير المخابرات، وسامي شرف، وشعراوي جمعة، وأنا . ولم يكن التوصل الى قرار في هذا الشأن بالامر السهل . وكان شعوري انا ان علينا ان نمد وقف اطلاق النار لاسباب سياسية بحت. صحيح ان الاستعدادات لعملية "جرانيت ١" كانت تمضي في طريقها، ولكن من الذي كان يستطيع في ذلك الوقت ان يتحمل مسؤولية اصدار الأمر بتنفيذها ؟ كان اليوم انذاك هو اخر سبتمبر (ايلول) ، وكان لا بد لمن سيختار رئيسا جديدا ان يثبت في منصبه باستفتاء عام يستغرق الاعداد له معظم شهر اكتوبر. (تشرين الاول) وليس من الانصاف ان نتوقع منه اصدار الامر ببدء الحرب ولما تمضي عليه في منصبه الا بضعة ايام . ثم.. هل من الانصاف ان نزج بالبلاد على الفور في معركة، وهي لا تزال ممزقة بالحزن؟ وهكذا اعلنت اني في جانب مد وقف اطلاق النار.

وتحدث البعض مؤيدين الاجراء العاجل . وخطر لي ان خير وسيلة لحسم الموضوع هي سماع رأي الرجل المحترف. وتحدث الفريق فوزي ، وقال ما يفهم منه ان مصر العليا (الصعيد) لم تستكمل شبكة الصواريخ فيها بعد . وسألته : " قل لي .. هل انت مستعد- من الناحية العسكرية المحض – لاستئناف القتال؟ " فقال : " انا جندي . واذا صدر الي امر مكتوب ، فاني سأنفذ ما تطلبه مني القيادة السياسية". وكان ذلك غريبا. اذ لم يحدث طوال حياة عبد الناصر ان طلب الفريق فوزي اية اوامر مكتوبة. وقلت: "ذلك ليس بالضبط هو الجواب على سؤالي . السؤال هو : هل يناسبك ، من الناحية العسكرية ان تبدأ القتال على الفور، ام انك تفضل ان يتاح لك مزيد من الوقت للاستعداد؟ ". وجاء رده على الفور : " اذا منحت فرصة شهرين اخرين فأني اظن ان موقفي سيكون احسن . ستكون بطاريات الصواريخ في مصر العليا قد استقرت في مواقعها ، وساشعر عندئذ بمزيد من الامن ". وقلت : " اظن ان في هذا ما يجيب على تساؤلنا. واذا كان الجيش يرى ان من الافضل ان تتاح له فرصة شهرين اخرين فخير وبركة. والفرق ليس كبيرا بين شهرين او ثلاثة. واظن ان علينا ان نوصي بمد وقف اطلاق النار فترة

ثلاثة اشهر اخرى" . وقد احتج بعض الحاضرين بان هذه طريقة مفاجئة بلا داع لانهاء المناقشة ، لكن الحقيقة انه لم يكن بينهم من كان مستعدا للمضي في المناقشة في الاتجاه المعارض .

وفي اثناء خروجنا من الاجتماع اقترب مني شعراوي جمعة وقال : " اظن اننا يجب ان نذهب الى مكان نجلس فيه ونتحدث... انت وانا وسامي وامين هويدي ". فقلت : " لا بأس ".

وركبنا نحن الاربعة السيارة الرسمية لوزارة الداخلية المخصصة له وجلس هو في المقعد الأمامي ، بينما جلسنا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي . وتبعتني سيارتي . وكانت معظم الطرق قد سدت بحشود الجماهير التي كانت تتدفق على العاصمة من جميع انحاء البلاد للاشتراك في الجنازة . وقلت لشعراوي: "على اي حال ، فاننا سنستطيع- في سيارتك- ان نصل الى وسط البلد ". (وكان شعراوي ادرك انه لن تكون هناك اية فرصة في اليوم التالي لوصوله الى مكتبه من منزله في مصر الجديدة) واتفق مع سامي وأمين هويدي على ان يقضوا ثلاثتهم الليل في مبنى هيئة قناة السويس في جاردن سيتي، ومن هناك يستطيعون بسهولة ان يصلوا الى مبنى مجلس قيادة الثورة في الجزيرة حيث يبدأ تشييع الجنازة. اما انا فكنت سأقضي الليل في منزلي على النيل مباشرة . وهكذا ، فاننا كلنا كنا متجهين الوجهة نفسها .

لكننا عندما وصلنا الى العباسية على بعد اربعة اميال من وسط المدينة ، كان الميدان اصبح مغلقا تماما، وطلب شعراوي الى السائق ان يتجه شمالا، وان يحاول السير في الطريق الخلفي الذي يمر بالقلعة. وعندما اقتربنا من امام كلية البوليس اوقف السيارة، والتفت ناحيتنا وقال : " اولئك الثلاثة.. انور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري ينزلون في قصر القبة ، ويتصرفون كأنهم حكومة ثلاثية.. مثلهم في ذلك مثل كوسيجين وبودجورني وبريجنيف ، بينما نحن الناصريين الحقيقيين ، واقرب الناس الى عبد الناصر لم نفعل شيئا للتنسيق في ما بيننا ، او الاتفاق على اسلوب مشترك للعمل . وهذا ما يجعلني ارى ضرورة البحث في الموقف بعضنا مع بعض " .

وكنت دائما احتفظ بتقدير لشعراوي الذي يتحلى بالعديد من الصفات الطيبة، لكني احسست في تلك اللحظة ان صراحته تتطلب مني قدرا مساويا من الصراحة. فقلت له : " لنكن واضحين بشأن موقف كل منا. هناك نقطة نظام اضعها.. ونصيحة صغيرة اقدمها . اما نقطة النظام فهي : انكم اذا كنتم تريدون التنسيق في ما بينكم بصفتكم وزراء فلا تفعلوا ذلك بحضوري ، لاني قد استقر رأيي على الخروج، وترك الوزارة ". وقد اثار قولي غضبا شديدا لدى سامي شرف وقال : " لا.. اما ان نخرج كلنا، او نبقى كلنا".

وطلبت اليه ان يتعقل وقلت : اني لم اكن ابداً جزءا من السلطة كما هو الحال بالنسبة اليكم .. كنت دائما صحافيا ، ولم اقبل منصب وزير الارشاد الا تحت ضغط شديد من عبد الناصر ، وتعدت بقبوله لمدة سنة فقط . وقد انقضت الان ستة اشهر، وانتقل عبد الناصر الى رحاب الله . وهكذا ، فقد قررت ان اتحلل من وعدي ".

واعترض سامي باني اذا فعلت ذلك فسأبدو كأني غير مستعد للعمل تحت رئاسة اي شخص آخر غير عبد الناصر، في حين انهم سيظهرون في مظهر المستعد لخدمة اي شخص . وقلت لسامي انه يبالغ، واني اتخذت قراري بالخروج من الوزارة وسأتمسك به، ولذا، فاني لا اوافق على ان يتم اي " تنسيق " بين الوزراء في حضوري . تلك كانت نقطة النظام .

اما نصيحتي الصغيرة فهي ان من الخطأ بالنسبة اليهم ان يحاولوا العمل معا كناصريين . وقلت : "انكم ان فعلتم ذلك فانكم ولا شك ستثيرون ردود فعل تؤدي في النهاية الى صراع على السلطة ، واذا حدث

تصادم في الآراء، فأني سأؤدي دوري فيه كصحافي، اما اذا نشب صراع على السلطة قائم على الاشخاص، فلن يكون لي شأن به، وستعاني البلاد كلها منه .

وازداد سامي انفعالا، وراح يصيح : "عبد الناصر لم يمت ". فقلت له : " اسمع.. لا بد لك ان تواجه حقائق الطبيعة. ان الرجل مات. وسيحكم على كل منكم فقط ، من الآن فصاعدا ، بما يمكن ان يقدمه من اجل مصلحة البلد . انها صفحة جديدة فتحت امامكم جميعا " .

وبدأ سامي يبكي ويصرخ بأننا اما ان نبقى كلنا او نخرج كلنا. وعندئذ فقدت اعصابي ونزلت من السيارة واتجهت الى سيارتي ، وكانت تقف وراء سيارة شعراوي مباشرة ، وعدت الى القاهرة .

وكان اليوم التالي- الخميس اول اكتوبر (تشرين الاول)- يوم الجنازة. وعلى رغم ان الفريق فوزي كان حشد ثلاث فرق من فرق الجيش في العاصمة، الا انه بدأ يشك في قدرته على حفظ النظام . وتلقيت مكالمة تلفونية من انور السادت قال فيها انه يود ان يبحث اقتراحا قدم اليه بالغاء موكب الجنازة، خشية ان يفلت زمام السيطرة على الجماهير فتشعل النار في المدينة. وقلت ان الغاء الجنازة سيكون كارثة، لان الناس سيتخيلون ان شيئا رهيبا قد حدث . وقلت اني ارى- كسبا للوقت ان ينقل الجثمان من قصر القبة الى مقر مجلس قيادة الثورة في طائرة هليكوبتر. وقد عرض السادات الاقتراح على العسكريين فوافقوا عليه، لكنه تبين انهم لا يستطيعون انزال الطائرة هناك ، فانزلوها بالجثمان في ارض نادي الجزيرة .

واثيرت مشكلة اخرى .

كان الاطباء يخشون ان يبدأ الجثمان في التحلل اذا طالت مدة الجنازة تحت حرارة الشمس بعد ان يخرج من الثلاجة . وكان هناك آخرون يخشون ان تخطف الجماهير الجثمان من النعش ، واقترحوا ان يكون النعش بلا جثمان . لكني قلت ان في ذلك مجازفة كبرى ، لان من المؤكد ان الجماهير ستسعى الى ان تتناول حمل النعش، فاذا ما تبين لها ان النعش فاض فلن يقتصر الأمر على حرق القاهرة وحدها، وانما مصر كلها ستحرق. ان النعش يجب ان يأتي.. ويجب ان يكون الجثمان في داخله. وهكذا نقل الجثمان في الطائرة ، وبدأت الجنازة كما كان مقررا لها .

وكنت كلفت بمرافقة كوسيجين خلال الجنازة . وكان كوسيجين ينزل في دار السفارة السوفييتية لا تبعد عن منزلي مسافة طويلة على الضفة الغربية للنيل . ولكن كان من الواضح ، عندما وصلت الى دار السفارة في الصباح الباكر، اننا لن نتمكن من الوصول الى مقر مجلس قيادة الثورة حيث ستبدأ الجنازة، حتى ولو سرنا على الاقدام ، لأن الكباري كانت فتحت لمنع كل انواع المرور . وهكذا، فانني ركبت مع كوسيجين قاربا صغيرا وعبرنا النيل من امام دار السفارة الى الحافة الجنوبية للجزيرة .

وساورني الانطباع وقتها ان كوسيجين كان منقبضا بصورة غير طبيعية. فالطريقة التي يتبعها الروس في مواجهة الموت تختلف عن طريقتنا . وكان من الواضح ان المشهد الذي رآه غريب عليه بل باعث على الصدمة. فقد كانت الجماهير في كل مكان : على ضفاف النيل .. وفوق الكباري ، تسد باعدادها الهائلة كل الشوارع . وسمعته يقول لي : " عليكم ان تحاولوا السيطرة على الاشياء ، لانكم اذا سمحتم لأنفسكم بان يجرفكم الحزن بهذه الطريقة فلأ احد يدري ما قد يحدث . ان البلاد كلها يمكن ان تنهار" .

وانتهت الجنازة .. وكانت حدثا وصفه الكثيرون ممن حضروها.

وكان فلا ديمير فينوجرادوف وقتها مساعدا لوزير الخارجية السوفييتية جروميكو واحد الزوار الاجانب الذين زاروني . وكان سميه سيرجي فينوجرادوف قد توفي اخيرا في اعقاب ازمة قلبية، وظل الاتحاد السوفييتي من دون سفير في القاهرة . ومن الغريب ان عبد الناصر كان يتحدث الي في هذا الموضوع قبل ثلاثة ايام من وفاته . واعربت له حينذاك ان املي في ان يعين الاتحاد السوفييتي " فينوجرادوف الصغير " سفيرا جديدا له في القاهرة ، ووافقني عبد الناصر على ذلك وقال : " كان هذا في فكري ايضا، لكننا لا نستطيع ان نطلب اليهم تعيين شخص بعينه ". وهكذا فحين زارني فلاديمير في مكتبي في "الاهرام " قلت له : " لماذا لا تأتي وتصبح سفيرا سوفييتيا هنا؟ ". فقال : " محمد.. انا مندهش . هل سمعت شيئا؟ ". فسألته عما يعنيه فقال : " قبل ان احضر الى هنا كان هناك اجتماع للمكتب السياسي ، تقرر فيه اختياري للسفارة السوفيتية في القاهرة ". فقلت له ان ذلك يعني ان واحدة من رغبات عبد الناصر ستتحقق بعد وفاته.

وسأل كوسيجين انور السادات عما اذا كان في امكانه ان يرتب له لقاء مع بعض ممن سيتولون المناصب القيادية في مصر خلفا لعبد الناصر، واعدت الترتيبات لعقد ثلاثة اجتماعات . اولها- وقد عقد في قصر القبة مساء يوم الجمعة ٢ اكتوبر (تشرين الأول) - تركز في بحث المسائل العسكرية، وحضره من الجانب المصري- اضافة الى السادات- كل من حسين الشافعي وعلي صبري والفريق فوزي وسامي شرف، بينما حضره من الجانب السوفييتي كوسيجين وزاخاروف وفينوجرادوف ولاشينكوف (الرئيس السابق للبعثة السوفييتية في مصر، وقد حضر الى القاهرة ضمن الوفد السوفييتي في تشييع الجنازة) والجنرال كايتشكين الذي حل محل لا شينكوف كرئيس للبعثة . وقد تحدث الفريق فوزي في الاجتماع عن الموقف الجديد الذي نشأ نتيجة لبرنامج التسليح الامريكي الجديد والضخم لاسرائيل الذي يتضمن تزويدها بصواريخ " شرايك " وكذلك بطائرات "الفانتوم " و" سكاي هوك " وأشار الى مدى الأهمية القصوى لضرورة احساس القوات المسلحة المصرية ، بعد وفاة عبد الناصر، بالثقة في السلاح السوفييتي وبتدفقه المستمر على مصر. ووعد زاخاروف بان يبذل ما في مقدوره، وان يكن اعرب عن رأيه في ان قائمة مشتريات السلاح التي قدمت اليه كبيرة جداً . كذلك قال- ولفت قوله نظر الحاضرين باعتباره كلاما له اهمية خاصة - انه يرى ان علينا بذل كل جهد لكي يحل المصريون محل كل الروس الموجودين في مصر قبل بدء المعركة. وقال : " ليس ذلك لأننا، في اي حال، نخشى على رجالنا هنا، ولكن لأننا نظن ان من الأفضل جدا ان تتولوا كل شيء بانفسكم " . وأكد الحاجة الى ضرورة اليقظة في كل وقت ، وقال انه شاهد في اثناء مروره في الشوارع ملامح استرخاء بين حرس الكبارى وغيرها .

وكان هناك اجتماع آخر في صباح اليوم التالي، وثالث بعد الظهر لبعض اعضاء الوزارة واعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي . وقال كوسيجين انه شعر باننا دخلنا حالة فقدان توازن نتيجة لوفاة عبد الناصر، وانه وزملاءه يحملون احتراما عظيما لمشاعرنا، كما كانوا يحملون احتراما عظيما للرئيس الراحل ، لكنهم يريدون ان يرونا نستعيد توازننا ، ويريدون منا، فوق كل شيء، ان نحافظ على وحدتنا. وقال ان الاستعماريين سيهاجموننا اذ توفي عبد الناصر، وانهم سيحاولون استغلال الفراغ الذي تركه. وأضاف ان مسؤوليتنا جسيمة لاننا يمكن ان نواجه الحرب في اية لحظة ، ولأننا لانواجه اسرائيل وحدها وانما الولايات المتحدة ايضا . ويجب الا نسمح لأ ي تأثيرات ، سواء كانت من اليمين او من اليسار المتطرف ، ان تشتت شملنا ، ثم قال انه يريد ان يذكرنا ان الروس تعرضوا في الآونة الأخيرة لمواجهة مع الأمريكيين بسبب الاردن ، وحذروا الأمريكيين من التدخل في الاردن ، بينما طلب الا مريكيون من الروس ضبط النفس . ويومها قيم عبد الناصر الموقف تقييما سليما، وكان رده متسما بالشعور بالمسؤولية. وذكر كوسيجين ان علاقات السوفييت مع الرئيس عبد الناصر كانت وثيقة للغاية وانه على رغم ما تعرضت له من صعوبات في بعض الاحيان ، فانه لم تكن هناك اية اسرار بين الطرفين، ولم تكن هناك ابدأ اية حاجة الى ان يخفي احدهما شيئأ عن الاخر او يكذب عليه، لان اخفاء الاشياء لا يفيد احدا بشيء، كما ان الكذب ينكشف دائما.

وقد سأل كوسيجين عما اذا كان من الممكن ان يزور عبد الناصر في ضريحه. فصحبوه اليه.. ثم غادر القاهرة عائدا الى بلاده .